روايات مصرية للجيب

157

رجل المستحيل

د. نبيل فاروق

المدرِّب



رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ـ 1) .. حرف (النون) يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيَّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكُّر و (المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدِّدة .

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ، ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة .. لقب «رجل المستحيل» .

د. نبيل فاروق

1ـ الحفيد ..

أومأ الطبيب الخاص لجهاز المخابرات العامة المصرى ، برأسه ، وهو ينزع سمّاعته الطبية عن عنقه ، ويشير إلى (منى توفيق) قائلاً :

ـ إنك تعانين من بعض الضعف والإرهاق فحسب ، وكل ما يمكن أن أوصى به هو إجازة قصيرة ، مع غذاء صحى ، غنى بالفيتامينات والفواكه الطازجة .

هبطت (منى) عن سرير الفحص ، وهى تقول فى توتر :

ـ ولكن ماذا عن العصبية الزائدة ، و.... وتلك الكوابيس ، التى تراودنى كل ليلة ، وتمنعنى من النوم تقريبًا ؟!

جلس الطبيب خلف مكتبه ، وأشار بيده قائلاً :

ـ وفقًا لملفك ، فقد خضتِ تجربة قاسية للغاية ، خلال العام السابق ، وهذا وحده كفيل بتحطيم أعصاب الرجال ، فماذا عن أنثى رقيقة مثلك ؟!

قالت فى عصبية ، بذلت جهدًا خارقًا لإخفائها :

ـ لست رقيقة كما تتصور .. أنا ضابط مخابرات !

ابتسم قائلاً :

ـ أعلم هذا .. وأعلم أنك من الجيل الأوّل للفتيات اللاتى يَحْملن رتبة رسمية هنا ، ولكن حتى ضباط المخابرات مجرّد بشر ، يصابون بكل ما يصاب به أى بشرى عادى .

حاولت أن تجادله ، إلا أنها شعرت بغُصة فى حلقها ، جعلتها تتصورً أنها قد تنفجر فى البكاء ، إذا ما فتحت شفتيها ، فأشاحت بوجهها ؛ لتخفى دمعة ترقرقت فى عينيها ، وجاهدت للفرار منها ، وجاء صوتها عصبيًا مختنقًا ، وهى تغمغم :

ـ ماذا إذن ؟!

صمت الطبيب لحظات ، وهو يتطلّع إليها ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ هل فكَّرت فى زيارة طبيب نفسى ؟!

التفتت إليه ، فى حركة حادة مستنكرة ، وهتفت :

ـ نفسى ؟!

أجابها فى هدوء :

ـ نعم .. حالتك تستدعى هذا بشدة .

عادت تُشيح بوجهها ، وتركت تلك الدمعة المتمردة تفر ، وتنسدل على خدها ، وهى تقول فى عصبية :

ـ أتعنى أننى على وشك الجنون ؟!

هتـف :

ـ جنـون ؟!

نطقها بلهجة تجمع بين الدهشة والاستنكار والمرح ، قبل أن يبتسم قائلاً :

ـ ماذا تركت للجهلاء إذن ؟!

انهمرت الدموع من عينيها أكثر ، دون أن تلتفت إليه ، فى حين تابع هو ، وقد تسلّل الحنان إلى صوته :

ـ المرض النفسى مثـل أى مرض آخـر ، وتأثيراته تفوق فـى الواقع أية أمراض عضوية أخرى .. وفى رأيى أن كل ما تعانين منـه هو انعكاس لأزمـة نفسية ، تكتمينها فى أعماقك ، فتلتهم جسـدك التهامًا .. ولو أنك واجهت أزمتك ، وتعاملت معها بوسيلة صحيحـة ، وتحت إشراف متخصِّص ، فستنتهى كل عذاباتك وآلامك .

لم تنبس ببنت شـفة ..

ولم تعترض ..

فهى تعلم أنه على حق ..

على حق تمامًا ..

إنها تعانى من أزمة نفسية حادة ..

أزمة لم يصنعها الاعتقال أو السجن ، أو حتى السقوط طويلاً فى قبضة العدو ..

بل هى أزمة صنعها صديق ..

صنعها (أدهم صبرى) ..

شخصيًا ..

« ماذا قررت ؟!.. »

قطع الطبيب تسلسل أفكارها بسؤاله ، فازْدَرَدَت لعابها فى صعوبة ، ومسحت دموعها ، وهى تلتفت إليه ، مُغَمْغِمَة فى خفوت :

ـ فليكن .

لم يسمعها الطبيب جيدًا ، فمال نحوها ، يتساءل :

ـ مـاذا ؟!

أجابته فى صوت أعلى ، وبتوتر واضح :

ـ سأذهب إلى الطبيب ، الذى نصحت به .

ابتسم الطبيب فى حنان وهدوء ، وهو يقول :

ـ صدقينى يا آنسة (منى) .. لن تندمى أبدًا .

ومرة أخرى ، لم تنبس ببنت شفة ..

ولم تحاول التعليق ..

فهو يقول : إنها لن تندم أبدًا ..

ولكنه ليس على حق هذه المرة ..

فهى تشعر بالندم بالفعل ..

بالندم الشديد ..

* * *

على الرغم من ازدحام السيارات الشديد ، حول ذلك النادى الرياضى الشهير ، فى قلب العاصمة المصرية ، توقَّفت سيارة صغيرة أمام باب النادى مباشرة ، وهبط منها شيخ وقور ، وهو يسأل حارس البوَّابة ، فى هدوء رصين :

ـ أهو هنا ؟!

أسرع إليه الحارس فى حماس ، وهو يومئ برأسه إيجابًا ، قائلاً :

ـ إنه يصل يوميًا ، فى تمام السابعة ، ويظل هنا حتى العاشرة .. عندما يكون فى (القاهرة) بالطبع .

تمتم الشيخ مؤيِّدًا :

ـ بالطبـع .

ثم ألقى مفاتيح سيارته الصغيرة للحارس ، وهو يعبر البوَّابة ، قائلاً :

ـ ابحث لها عن مكان .

التقط الحارس المفاتيح ، على نحو يوحى بأنه قد اعتاد هذا ، وقال فى حماس :

ـ فورًا يا سيادة اللواء .

عبر الشيخ حديقة النادى فى خطوات واسعة قويـة ، تتعـارض كثيرًا مع وجهه المليء بالتجاعيد ، حتى وصل إلى منطقة الرياضة الحيوية ، حيث توقَّف ، وراح يبحث ببصره ، حتى استقرت عيناه على رجل مفتول الذراعين ، قوى البنية ، ممشوق القوام ، يعـدو عبر المنطقة ، فى دورات طويلة ، وهو بادى الحيوية والقوة والنشاط ..

ولدقائق ، وقف الشيخ يتابع الرجل فى دوراته ، وعينـاه تحـملان مزيجًا من الإعجاب والحنان والسعادة ، حتى توقَّف الرجل ، والتقط مِنشَفة ليجفف عرقه .. وعندئذ ، اتجه إليه الشيخ ، وغمغم مبتسمًا ، بكلمات تفيض حنانًا :

ـ نشيط كعهدى بك يا (أدهم) .

التفت (أدهم صبرى) إليه فى سرعة ، وعينـاه ووجهه تحمل الفرحة واللهفة والسعادة ، وهتف :

ـ عمى (حسن) !

بدا ، وهو يصافحه بكل الحرارة ، أنه يكاد يحمله عن الأرض ، ويطير به فـى سماء النـادى ، من فرط سعادته ، قبل أن يكمل بابتسامة فرحة :

ـ سنوات مضت ، منذ التقينا آخر مرة .. كم أشتاق إليك يا عماه ! أين أنت ؟!.. ماذا فعلت بعد أن تركت العمل فى الجهاز ؟

ابتسم (حسن) ، زميل والد (أدهم) القديم ، فى حنان ، وهو يجيب :

ـ لقد عملت فترة كسفير للوطن فى (موسكو) ، وبعد خروجى من الخدمة ، ابتعت مزرعة صغيرة ، فى إحدى المناطق الجديدة .. وأقضى ما تبقَّى من العمر ، فى زراعة الزيتون وتصديره .

أمسك (أدهم) كتفيه فى فرحة ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك أن تتصوَّر مدى سعادتى برؤيتك !

قال (حسن) مبتسمًا :

ـ وأنا أيضًا يا (أدهم) .. إنك بمثابة ابن لى ، فقد تابعت خطة والدك ـ رحمه الله ـ فى إعدادك وتدريبك ، منذ كنت فى الثالثـة من عمرك ، و ...

بتر عبارته ، وكأنما لا يرغب فى الاستطراد ، فقال (أدهم) مكملاً :

ـ وكنتَ آخر من رآه على قيد الحياة ، قبل أن يغتالـه (الموسـاد) فى (لندن) .

أومأ (حسن) برأسه موافقًا ، وتمتم فى حزن :

ـ كنا بمثابة شقيقين !

هتف (أدهم) فى حماس :

ـ وأنا أعتبرك كذلك يا عماه !

رفع (حسن) عينيه إليه ، وقال فى خفوت :

ـ وهذا ما دفعنى إلى اللجوء إليك .

تفجَّرت الكلمة فى أذن (أدهم) ومشاعره ، وجعلتـه يقول فى حزم مخلص :

ـ أنا رهن إشارتك .

تلفَّت اللواء (حسن) حوله فى توتر ، وغمغم :

ـ ألا يوجد مكان جيد ، يمكننا الجلوس فيه على انفراد ؟!

اعتدل (أدهم) ، وهو يجيب فى حزم أكثر :

ـ بالتـأكيد .

لم تمض دقائق خمس على قوله هذا ، حتـى كـان يجلس مـع اللواء (حسن) ، فى ركن قصى منفـرد ، مـن المبنـى الاجتمـاعى فى النادى ، والأخير يقول فى توتر ملحوظ :

ـ سمعت أنهم قد نقلوك من قسم العمليـات إلـى قسم التدريـب يا (أدهم) .

ابتسم (أدهم) ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ يدهشنى أن تُتَنَاقل الأخبار على هذا النحو ، من قلب جهـاز المخابرات !

أشار (حسن) بيده ، مغمغمًا :

ـ لا تنس أننى ما زلت جزءًا منه .

تمتم (أدهم) :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدل ، قائلاً :

ـ وهذا يعنى أنه ما زالت لك حقوق على الجهاز .

أشار (حسن) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ لو أننى أطلب أمرًا رسميًّا .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وتطلَّع إليه لحظاتٍ فى صمت ، ثم مال نحوه متسائلاً :

ـ أعترف أنك قد نجحت فى إثارة فضولى يا عماه !

تطلَّع اللواء السابق إلى عينَىْ (أدهم) مباشرة ، وحمل صوته كل توتره وانفعاله ، وهو يقول :

ـ هشـــام !

التقى حاجبا (أدهم) ، وهو ينظر إليه فى تساؤل ، فاستطرد ، فى توتر أكثر :

ـ إنــه حفيدى ، وهو يستكمل دراسته فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والمفترض أنه مرشَّح ، بعد عودته ، للعمل فى المخابرات العامة ، بناءً على توصية رئيس قسم العمليات شخصيًّا .

قال (أدهم) فى حذر :

ـ أظن أنه لا توجد مشكلة حتى الآن ، وفقًا لروايتك !

تطلَّع إليه اللواء لحظة ، ثم قال :

ـ لا توجد مشكلة ، بالنسبة لالتحاقه بالمخابرات ، ولكن المشكلة هناك .

ثم مال نحو (أدهم) ، واستطرد هامسًا فى انفعال :

ـ فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وانعقد حاجبا (أدهم) أكثر ..

فذهنه لم يستبعد بعدُ تلك الذكرى المؤلمة ، التى واكبت تواجده فى الولايات المتحدة الأمريكية آخر مرة ..

ذكرى القتال العنيف ..

والمواجهة مع (سونيا جراهام) ..

ومستر (X) ..

والقوات الأمريكية كلها(*) ..

ثم الانفجار ..

وسفره إلى (العراق) (**) ..

وعودته إلى الولايات المتحدة ..

وإلى أحراش (أمريكا الجنوبية) (***) ..

وإنقاذ رفاقه ..

وحربه مع كل القُوَى ..

(*) راجع قصة (النهاية) ... المغامرة رقم (150) .

(**) راجع قصة (العودة) ... المغامرة رقم (151) .

(***) راجع قصة (الأحراش) ... المغامرة رقم (154) .

كل القوى بلا استثناء ..

حتى رفاقه فى جهاز المخابرات ، الذين أصروا على معاقبته ؛ لتجاوزه حدود وظيفته ، وانغماسه فى صراعات شخصية(*) ..

وبكل الذكريات والتوترات ، غمغم :

ـ وماذا يحدث هناك ؟!

ازدرد (حسن) لعابه ، مغمغمًا ، فى خفوت أكثر ، وتوتر أعظم :

ـ يحاولون تجنيده !

تراجع (أدهم) فى مقعده فى بطء ، وتطلّع إلى (حسن) فى اهتمام بالغ ، ولكنه لم يحاول أن يطرح أى سؤال ، وإنما ترك الرجل يستطرد فى انفعال جارف ، بدا من الواضح أنه يملك عليه كل مشاعره :

ـ وصلتنى معلومة مخيفة ، عن طريق صديق قديم ، أخبرنى أن (هشام) يواجه بعض الأمور الغامضة والمريبة ، أثناء تواجده فى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فهناك من يتبعه أحيانًا ، وهاتفه يتعرَّض للمراقبة كل حين وآخر ، وهو يشك فى أن أحدهم قام بتفتيش شقته فى غيابه ، على الرغم من أنه لم يجد دلائل واضحة لهذا ، والأمر نفسه حدث مع سيارته ، وكل ذلك تم باحتراف شديد ، مما يوحى بأن وراءه جهة كبيرة منظمة .

(*) راجع قصة (المواجهة) ... المغامرة رقم (156) .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ولماذا افترضت أنها محاولة تجنيد ؟!

أجابه (حسن) فى سرعة :

ـ لأن هذا أسلوبهم ، ولأن (هشام) حصل على بعثته الدراسية ، بترشيح من وزارة الداخلية ، مما يوحى بأنه سينضم إلى السلك الدبلوماسى ، وهذه فريستهم المفضّلة .

سأله (أدهم) فى اهتمام أكبر :

ـ الأمريكيون ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ بل .. الإسرائيليون .

سرت موجة من التوتر فى عروق (أدهم) عندما سمع الصفة ، واعتدل متسائلاً :

ـ وهل أعلمت (هشام) بهذا ؟!

هزَّ (حسن) رأسه نفيًا ، وأجاب :

ـ ليس بعد ؛ فالأمر شديد الحساسية والخطورة ، ولا تنس أننى كنت المسئول الأوّل عن نشاط المخابرات الأمريكية ، حتى خرجت من الخدمة ، وأحفظ أسلوبهم عن ظهر قلب .. ولو أنهم

يحاصرونه لتجنيده بالفعل ، فسيتابعون كل خطوة من خطواته بمنتهى الدقة ، ولو انتبهوا إلى أية صلات له ، بجهاز المخابرات المصرى ، فربما يعمدون إلى التخلُّص منه ، خشية أن يكون قد انتبه إلى ما يفعلونه .

تساءل (أدهم) :

ـ وماذا لو أنه لم يتجاوب معهم ؟!

أجابه على الفور :

ـ ربما لن تختلف النتيجة كثيرًا .

وصمت لحظة فى توتر ، قبل أن يضيف :

ـ ثم إنه لو انتبه الجهاز هنا ، إلى محاولة المخابرات الأمريكية ، فربما يتراجع تمامًا عن فكرة ضم (هشام) إليه ، باعتباره محاطًا بدائرة من الشك .

والتقط نفسًا عميقًا ، وهز رأسه فى أسى ، قبل أن يقول :

ـ أرأيت كم هو عسير الأمر ومعقَّد ؟!

صمت (أدهم) بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

ـ ربما .

بدت كلمته مقتَضَبة غامضة ، على نحو جعل (حسن) يتطلَّع إليه فى اهتمام ، قبل أن يسأله فى مزيج من القلق والفضول :

ـ ماذا يدور فى ذهنك ؟!

صمت (أدهم) لحظات ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لعبة .

ولم يفهم (حسن) ما يعنيه (أدهم) !!..

ولم يحاول هذا الأخير أن يشرح .. لذا ، فقد بقى الأمر غامضًا .. تمامًا .

★ ★ ★

2- حالة خاصة ..

على الرغم من وجودها فى عيادة الطبيب النفسى ، الخاص بجهاز المخابرات ، لم تستطع (منى) منع ذلك التوتر الشديد ، الذى سرى فى كيانها كله ، وهى ترقد أمام الطبيب ، الذى سألها فى هدوء شديد :

- ما الذى يقلقك بالضبط ؟

تردّدت (منى) لحظة ، قبل أن تقول فى عصبية :

- أمور عديدة !

ظلّ صوت الطبيب النفسى شديد الهدوء ، وهو يقول :

- ولكن أحد تلك الأمور يحتل مكان الصدارة بالتأكيد .

كانت تعلم أنه على حق تمامًا ..

هناك أمر واحد ، يحتل كيانها ، ويسيطر على مشاعرها كلها ..

أمر يخص أحب إنسان إلى قلبها ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

وهى هنا بالذات ، من أجل هذا ..

من أجل أن تتحدّث ..

وتفصح ..

وتتحرر ..

ولقد ألقى الطبيب النفسى سؤاله أو عبارته الهادئة ، ثم لاذ بالصمت التام ، فى انتظار جوابها ..

ولكنها تردّدت ..

تردّدت كثيرًا ..

وطويلاً ..

وعلى الرغم من صمتها الطويل ، ظلَّ الطبيب النفسى ينتظر فى صبر ، حتى حسمت هى أمرها ، وقالت فى توتر :

- (أدهم) !

تساءل الطبيب فى اهتمام :

- (أدهم صبرى) ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، فسألها :

- وماذا عنه ؟!

مرة أخرى ترددّت ، وتوترت ، قبل أن تجيب فى خفوت ، وكأنها تتمنى ألا يسمعها الطبيب :

ـ لقد أسأتُ إليه كثيرًا .

بدت دهشة لحظية على وجه الطبيب ، قبل أن تختفى فى سرعة ..

فالواقع أنه لم يتصوَّر أبدًا أن يكون (أدهم) سبب أزمتها ..

فعلى الرغم من أنهما لم يفصحا عن هذا أبدًا ، ولم يعلناه لأحد ، فكل من فى جهاز المخابرات يدرك جيدًا عمق قصة الحب الجميلة ، التى تربط (أدهم) و(منى) ..

وربما يتساءل الكل : لماذا لم يتزوَّجا ؟!..

لماذا ؟!..

ولقد اعتبر البعض عدم زواجهما إساءة لـ (منى) ، التى يضيع عمرها ، فى انتظار مغامر لا يستقر له قرار أبدًا ..

ولكن أن تشعر (منى) بأنها أساءت إلى (أدهم) ، فهذا ما يعجز عن فهمه !!..

وما لم يكن يتوقَّعه ..

أبدًا ..

وبهدوء ، لم يَخْلُ من رنة فضول ، سألها :

ـ وكيف أسأت إليه ؟

بدأت الدموع تتسلَّل من عينيها ، وهى تجيب فى مرارة :

ـ لقد أفسدتُ عمله .

جذبت العبارة اهتمامه فى شدة ، فاعتدل يتطلَّع إليها ، وهى تتابع :

ـ لست أنكر أننى أعشق ما فعله ، عندما قاتل الدنيا من أجلى ، وأشعر بالفخر والزهو كأنثى ؛ لأن الرجل الذى أحببته جازف بحياته لإنقاذ حياتى ، وهو مستعد فى كل لحظة لبذل نفسه من أجلى .. ما الذى تتمناه أية أنثى فى العالم ، وحتى عبر التاريخ ، يفوق هذا ؟!

انهمرت دموعها فى شدة ، عند هذه النقطة ، وأجْهَشت بالبكاء على نحو عنيف ، منعها من الاستطراد ، وجعل جسدها يرتجف فى شدة ، من شدة انفعالها وتوتّرها ، فلاذ الطبيب بالصمت تمامًا ، وانتظر حتى هدأت نفسها قليلاً ، بعد ما يقرب من دقائق عشر ، ثم حاولت أن تجفِّف دموعها ، وهى تغمغم :

ـ معذرة .. إننى لم ...

قاطعها الطبيب فى هدوء :

ـ لا عليك .. لقد اعتدت هذا .

جفّفت ما تبقّى من دموعها ، وحاولت أن تسترخى على الأريكة أمامه ، إلا أنها عجزت عن الاستطراد ، فسألها الطبيب فى خفوت :

ـ تشعرين بالفخر .. ولكن ..

اكتفى بهذا القول ، الذى يحثّها على المواصلة ، فازدردت لعابها فى صعوبة ، وقالت بصوت مختنق :

ـ لقد أنقذنى ، وأنقذ الجميع .. (قدرى) و(ريهام) و(شريف) ، ولكن الثمن كان باهظًا .

قال الطبيب بنفس الخفوت :

ـ معلوماتى أنه فى أتم صحة وعافية .

عادت الدموع تنسال من عينيها ، وهى تقول :

ـ ولكنه فقد عمله .

بدا للطبيب أنه قد توصل إلى سر أزمتها ، فقال فى هدوء :

ـ لم يفقد عمله ، وإنما انتقل من إدارة إلى أخرى ، حسب ما أخبرونى به .

قالت فى مرارة :

ـ لقد ترك قسم العمليات ، وهذا أشبه بالموت ، بالنسبة لرجل مثله .

قال فى حيرة :

ـ ولكن هذا يبعده عن الخطر !

اندفعت قائلة ، فى شىء من الحدة :

ـ ومن قال بأن هذا يسعده ؟!

ارتفع حاجبا الطبيب فى شدة ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فحاولت هى أن تمسح دموعها فى عصبية ، وهى تقول :

ـ من الواضح أنك لا تعرف (أدهم) مثلما أعرفه .. إنه رجل ليس ككل الرجال .. ربما يَسْعَد الجميع بالابتعاد عن الخطر ، ولكن (أدهم) سيشعر وكأنه قد فقد حياته .. إنه يواجه الخطر منذ نعومة أظافره ، حتى إنه قد ألِفه ، واعتاده ، ولم يعد يخشاه ، بل أصبح ، إلى حد ما ، يستمتع بمواجهته .. يعشق مواجهته ، ويشعر بحياته فى قتال عمالقة أجهزة المخابرات المعادية ، وفى تحطيم أنظمة إجرامية رهيبة ، وكسر أنف طغاة ، لم يتصوّروا قطُّ أن يهزمهم رجل واحد ، بكل قواتهم وجيوشهم ، وعدتهم وعتادهم .. إنه رجل لا يمكنك أن تجد فيه عيبًا واحدًا ، أو فجوة واحدة .. رجل بكل معنى الكلمة .

على الرغم منه ، شعَر الطبيب النفسى بالانبهار ، إلى حد جعله يغمغم :

ـ تتحدثين كما لو أنه صورة خيالية ، فى رواية قديمة .

قالت ، فى شىء من الحدة :

ـ إنه حقيقة ، ولكنه ليس رجلاً عاديًا .

وحمل صوتها كل حبها ، وعشقها ، وهُيامها ، وانبهارها ، واحترامها ، وهى تضيف بلهجة ، ارتجف لها جسد الطبيب النفسى على الرغم منه :

ـ إنه أسطورة !

نطقتها ، فساد الصمت بعدها تمامًا ، وعادت دموعها تنهمر بمنتهى الشدة والصمت ، فى حين شعر الطبيب بحالة لم يشعر بها من قبل قط ..

حالة تتناسب مع ما وصفت به الرجل ..

رجل المستحيل ..

★ ★ ★

كان الطقس شديد البرودة ، فى العاصمة النرويجية (أوسلو) ، حتى إن سكانها ، الذين اعتادوا البرودة ، انكمشوا داخل معاطف سميكة ، والتفوا حول أجهزة التدفئة ، وقبعوا فى بيوتهم ، بعد انتهاء ساعات عملهم الرسمية ..

وعلى الرغم من صعوبة الطقس ، توقَّفت سيارة كبيرة ، أمام منزل أنيق من طابقين ، على أطراف العاصمة ، وهبط منها رجل قصير ، ممتلئ الجسد ، يرتدى معطفًا من الفراء ، وغطاء رأس من النوع نفسه .. ولم يكد يخرج إلى البرودة ، حتى التقط منها نفسًا عميقًا ، وقال فى انتعاش :

ـ الطقس جميل هنا .. أفضل بكثير مما لدينا فى (موسكو) .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ، قبل أن يتجه إلى المنزل ، ويخرج من جيبه بطاقة مغنطيسية خاصة ، دسَّها فى فراغ خاص بها ، عند زاوية الباب ، فتألَّق مصباح أخضر فوقها ، وانبعث صوت أنثوى آلىّ ، يقول :

ـ مرحبًا جنرال (ماليكوف) .

مطَّ شفتيه ، فى شىء من الازدراء ، وانتظر حتى انفتح الباب ، فعبره فى هدوء ، ليجد نفسه داخل ممر صغير ، يقف فيه رجلان ضخما الجثة ، يرتديان حلة سوداء ، وكل منهما يعقد كفيه خلف

ظهره ، ولقد تجاوزهما الجنرال (ماليكوف) ، دون أن يتبادل معهما أو يتبادلا معه حرفًا واحدًا ، ودفع الباب الثانى ، فى نهاية الممر ، لتنكشف أمامه قاعة صغيرة أنيقة ، جلس فيها ثلاثة رجال ، نهض أحدهم لاستقبال (ماليكوف) ، وهو يقول :

ـ مرحبًا يا جنرال .. إننا فى انتظارك منذ أكثر من ساعة .

أجابه (ماليكوف) فى برود :

ـ هذا ما ينبغى .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يقول أكثرهم نحافة ، فى لهجة متزلفة منافقة :

ـ بالطبع يا جنرال .. الكولونيل (سميث) لم يقصد شيئًا ، ولكنك تعرف نظام المخابرات الأمريكية .

انعقد حاجبا (ماليكوف) الكثَّان ، وهو يقول فى صرامة :

ـ نظامنا فى المخابرات الروسية لا يختلف كثيرًا .

حاول النحيف أن يحافظ على ابتسامته ، وهو يقول :

ـ نحن أيضًا نتبع النظام نفسه فى (الموساد) ، ولكن يسعدنا دومًا التعاون مع أجهزة مخابرات عظيمة مثلكم .

مطَّ الرابع شفتيه ، وكأنما لا يروق له القول ، وغمغم فى رصانة باردة :

ـ لا داعى للتزلُّف يا أدون (راعول) .. كلنا نعلم أن مخابراتكم تبحث دومًا عن قوة تستند إليها .

بدا الحقد على وجه (راعول) ، والتفت إليه فى بطء ، قائلاً :

ـ لا يمكننا بالطبع خداع مخابراتكم البريطانية يا سير (ويليام) .

مط سير (ويليام) شفتيه دون تعليق .. ونقل الكولونيل (سميث) نظره بينهم فى توتر ، قبل أن يقول :

ـ على أية حال ، نحن لم نجتمع ، كممثلين لأربعة أجهزة مخابرات قوية ، لنتجادل فى هذا الشأن .

غمغم (ماليكوف) ، وهو يتخذ مقعدًا وسطهم :

ـ أنت على حق .

ران الصمت عليهم بضع لحظات ، فتساءل الروسى فى صرامة :

ـ ماذا ننتظر ؟

أجابه (راعول) فى اهتمام ، وبابتسامة لم ترق له أبدًا :

ـ العضو الخامس والأخير .

وأضاف الأمريكى :

ـ العضو النسائى .

انعقد حاجبا (ماليكوف) فى صرامة وتساؤل ، وهمَّ بإلقاء سؤال ما ، ولكن قبل أن يفعل ، انطلق أزيز مصباح صغير أحمر ، فوق إطار الباب ، الذى انفتح قبل أن ينتهى الأزيز ، وظهرت على عتبته أنثى بالغة الحسن ، ترتدى معطفًا ثمينًا من فراء المنك ، وحذاء يكفى ثمنه لإقامة أوَدَ قبيلة كاملة .. ولقد أدارت عينيها فى الرجال الأربعة ، قبل أن تقول بالإيطالية ، مع ابتسامة شبه ساخرة :

ـ مرحبًا !

نهض (راءول) فى سرعة ، ليستقبلها فى حرارة ، قائلاً :

ـ مرحبًا دونا (كارولينا) .. كم يسعدنا انضمامك إلينا !

جاوبته بابتسامة باردة ، ثم خلعت معطفها ، فبدت أكثر فتنة وجمالاً ، فى ثوب فاخر أنيق ، ينتهى بحذاء طويل العنق ، فتعلَّقت بها كل العيون ، وهى تتهادى فى سيرها ، حتى استقرَّت على مقعد وسطهم ، وقالت وهى تشعل سيجارة ملوَّنة :

ـ أخبَرُونى أننا سنكوِّن جبهة موحَّدة .

غمغم (سميث) :

ـ هذا صحيح .

أضافت ، فى شىء من السخرية :

ـ لمواجهة رجل واحد !

بدا الضيق على وجه الكولونيل (سميث) ، وعقد الجنرال (ماليكوف) حاجبيه ، فى حين مطَّ سير (ويليام) شفتيه ، وقال (راءول) فى توتر :

ـ إنه ليس مجردُ رجل عادى .

استرخت قائلة :

ـ أعلم هذا أكثر من أى واحد منكم .. إنه (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

ولم يعلِّق أحدهم بحرف واحد ، وكأنهم يتفقون على أنهم قد اجتمعوا ، من أجل القضاء على ذلك الرجل الواحد ..

رجل المستحيل ..

★ ★ ★

تطلّع مدير المخابرات العامة المصرية إلى (أدهم) طويلاً فى صمت ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويقول فى هدوء :

ـ مطلب غريب ، ذلك الذى تقدّمت به يا (ن ـ 1) ؟!

أجاب (أدهم) فى هدوء :

ـ ولكنه يدخل فى صميم عملى يا سيادة الوزير .

تطلّع إليه مدير المخابرات بضع لحظات أخرى فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ المفترض أنك مدير قسم التدريب ، ومهمتك الأولى أن تُعد الجيل الجديد من ضباط المخابرات ، ولكنك تسعى لتدريب حالة خاصة ، خارج الحدود ، وبالتحديد داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تطالب برأسك بعد كل ما فعلته هناك .

أجاب (أدهم) فى هدوء :

ـ أعترف أنها حالة خاصة ، ولكنها فى الوقت ذاته فرصة مثالية لاستعادة نشاطى ، والانتقال النفسى من قسم العمليات ، بكل عنفه وخطورته ، إلى قسم التدريب ، بنظامه وهدوئه .

تراجع المدير فى مقعده ، وهو يقول :

ـ ومن سيوافق على ما تطلبه ؟!

صمت (أدهم) لحظات ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أننى أحتاج بشدة إلى هذا ، فتدريب السيد (هشام حسن) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، سيحقّق لى أكثر من هدف ؛ أوّلها أننى سأبدأ عملية التدريب على نحو هادئ ، سيساعدنى حتمًا على تقمُّص دورى الجديد ، فى منصبى الحالى ، وسأقوم هناك بعملية تدريب متكاملة ، نظرية ، وعملية ، وميدانية ، ثم إننى سأعمل على تنشيط مهاراتى فى الوقت ذاته ، فسأصل إلى هناك متنكرًا ، وسأتعامل طوال الوقت متخفيًا ، وهذا سيعيد إلىَّ إحساسى بذاتى ، وسيعاوننى على لعب الدور ، الذى ينبغى أن ألعبه ، فى مناخى الجديد .

ولدقيقة كاملة ، لم يعلّق مدير المخابرات ..

لقد بدا له حديث (أدهم) منطقيًّا ، ولكنه لم يقتنع بحرف واحد منه ..

فهو أكثر من يعلم أنه من الخطأ دفن قدرات رجل فائق مثله ، فى منصب نمطىّ إلى هذا الحد ..

ولكنه كان مضطرًا إلى اتخاذ القرار ؛ حتى يتحقّق العدل والنظام ، داخل أروقة جهاز المخابرات ..

وها هو ذا (أدهم) يقف أمامه ، مُطالِبًا بحالة خاصة ..

خاصة جدًا ..

حالة ينبغى ألا يوافق على حدوثها ..

ولكنه لن يفعل ..

لن يرفض مطلب (أدهم) ..

إنه لا يعرف هدفه الفعلى ، من مطلبه هذا ، ولكنه واثق من أنه حتمًا هدف نبيل ..

ومن أن (أدهم) يحتاج إلى هذا ..

يحتاج إليه بشدة ..

« فليكن يا (ن - 1) » ..

نطقها فى هدوء ، فالتقى حاجبا (أدهم) فى اهتمام ، قبل أن يتابع :

- سأوافق على سفرك إلى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ للقيام بعملية تدريب خاصة .

التقط (أدهم) نفسًا عميقًا ، وقال وهو يشدّ قامته :

- أشكرك يا سيادة الوزير .

قالها ، ودار على عقبيه ، متجهًا نحو باب حجرة الوزير ، الذى تابعه ببصره لحظات ، قبل أن يستوقفه فى حزم :

- (ن - 1) .

التفت إليه (أدهم) متسائلاً ، فتابع فى حزم أكثر :

- تذكّر أنك ستسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليس كرجل عمليات خاصة ، ولكن كمدرّب .

وبلغت لهجته أقصى درجات الحزم والصرامة ، وهو يضيف :

- مدرّب فقط .

أجابه (أدهم) فى حزم :

- بكل تأكيد يا سيادة الوزير .

لم يَدْرِ وهو ينطقها ، أن تلك المهمة قد تصبح أخطر مهمة قام بها ، فى حياته كلها ..

وأنها قد تكون الأخيرة ..

آخر مهمة لرجل المستحيل ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

3ـ كل القــوى ..

بدت دونا (كارولينا) شاردة تمامًا، وهى تراقب الجليد المتساقط، عبر نافذة ذلك المنزل الآمن فى (أوسلو)، وتنفث دخان سيجارتها الملوّنة فى صمت .. واحترم الجميع صمتها وشرودها، حتى الجنرال الروسى الصارم، فلاذوا بالصمت، وهم يتطلعون إليها، حتى انتهت سيجارتها، فاستدارت تطفئها بحركة أنيقة، فى منَفضة فضية، قبل أن تعتدل، وتعقد ساعديها أمام صدرها، قائلة :

ـ أريد أن أسمع خطتكم مرة أخرى ..

تبادلوا نظرة صامتة، قبل أن يقول (راءول) :

ـ الواقع يا دونا أننا قد أعددنا خطة شديدة التعقيد، تعتمد على دراسة شخصية (أدهم صبرى) فى عدة جوانب، واستعنّا بفريق كامل، من أقوى وأبرع الأطباء النفسانيين؛ لدراسته، وتحليله، وتحديد ردود أفعاله المتوقَّعة، تجاه أى موقف، وغَذَّينا بكل هذا جهاز كمبيوتر خاصًا حديثًا، بحيث صنعنا شخصية افتراضية، بديلة لخصمنا، داخل الجهاز، وكل مهمتها أن تحدِّد ردود أفعاله، تجاه أية خطوة نقوم بها .

كان ينتظر رؤية الانبهار على وجهها ، ولكنها بدت باردة ، وهى تشعل سيجارة جديدة ، مغمغمة :

ـ ثم ؟!

استطرد فى ضيق :

ـ ثُمَّ بدأنا فى إعداد خطة بالغة الدقة والتعقيد ، تشاركَتْ فى وضعها وتنفيذها أجهزة مخابراتنا ، التى يرى كل منها أن (أدهم) هذا عدو لدود ، لابد من التخلص منه ، حتى لا يصبح شوكة فى ظهرنا ، فى أى عمل مستقبلىّ .

نفثت دخان سيجارتها ، فى شىء من العصبية ، وهى تقول :

ـ وهكذا تآزرتم ضده .

أشار الأمريكى بسبّابته ، قائلاً :

ـ هكذا نفذنا أبرع خطة فى التاريخ .

أضاف الإنجليزى ببرود :

ـ أو بدأنا تنفيذها .

أدارت بصرها بين أربعتهم ، ثم عادت إلى مقعدها ، متسائلة :

ـ أهذا ما يجعلكم واثقين من أنه سيأتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية متنكرًا ، على الرغم من أن كل رَجُـل أمن فيها يرغب فى اعتقاله .

زمجر (ماليكوف) دون مبرر ، وقال :

ـ المراقبة الواضحة ، التى استخدمناها مع المصرى الشاب ، جعلته يقلق ، ويعلن مخاوفه ، التى بلغت جَدَّه بالطبع .. ولأنه بمثابة والد لـ (أدهم) ، كان من الطبيعى أن يلجأ إليه .. ولأن (أدهم) لديه نقطة ضعف كبيرة ، تكمن فيما يسميه المصريون بالشهامة ، وأطلق أنا عليه اسم الحماقة ، فلن يرد الجد خائبًا ، وسيسعى لإنقاذ حفيده ، مهما كانت المخاطر .

قالت فى عصبية :

ـ ولكنكم تؤكدون أنه سيصل متنكرًا .

أجاب الأمريكى فى سرعة :

ـ ولن يعترض أحد وصوله .

وابتسم الإسرائيلى مكملاً :

ـ المهم أن يصبح فى قبضتنا ، داخل الحدود .

انعقد حاجباها فى شدة ، ونفثت دخـان سيجارتها فـى عصبيـة واضحة ، قبل أن تشير بيدها قائلة :

ـ ليست أوَّل مرة يواجه مثل هـذا الموقف ، وها هو ذا حـى يرزق ، بكامل الصحة والعافية .

أجاب الروسى ، فى بطء صارم :

ـ فى هذه المرة ، سيختلف الأمر .

أطلَّت من عينيها نظرة تساؤل ، فأضاف الأمريكى :

ـ ففور وصوله ، ستحاصره أجهزة مخابرات أربع دول ، ومنظمـة كاملة تَرأسينها .

بدا الإسرائيلى شديد الحماس ، وهو يكمل :

ـ باختصار ، لن يجد جحر بَعوضة للاختباء .

قالت ، فى شىء من الحدة :

ـ المهم أن تنالوا منه .

لم يرُق قولها للجنرال الروسى ، الذى قال فى صرامة :

ـ لن يفلت .

هزَّت كتفيها ، وكأنهـا تعلن عـدم اقتناعها ، فسألها (سـميث) فى صرامة :

ـ السؤال هو : هل ستنضمِّين إلينا ، أم ..؟!

تطلَّعت إليه لحظات فى صمت ، قبل أن تتراجع فـى مقعدهـا ، وتضـع إحدى ساقيها فـوق الأخرى ، علـى نحـو جعلهـا صـورة للفتنة مجسَّمة ، وهى تسأل :

ـ والثمـن ؟!

بدت عليهم الصدمة لسؤالها ، فيما عدا الأمريكى ، الذى أجـاب فى سرعة ، وكأنه مستعد للسؤال مسبقًا :

ـ عفـو شـامل ، عن كل مـن أُلقـى القبض عليهم مـن رجـال منظمتك ، وإغماض الأعيُن عن تصرفاتكم ، فى الولايات المتحـدة الأمريكية ، و ...

قاطعته فى برود :

ـ فقط ؟!

أجابها فى عصبية :

ـ هل تريدين مقابلاً ماديًّا أيضًا ؟!

ابتسمت فى سخرية ، وهى تشير بيدها ، قائلةً :

ـ لن أمانع ، لو أنكم لا تمانعون ، ولكن ليس هذا ما كنت أقصده .

تبادلوا نظرة قلقة متسائلة ، وتساءل الأمريكى فى حذر :

ـ ماذا قصدتِ إذن ؟!

أدارت عيناها فى وجوه أربعتهم ، وهى تقول :

ـ قصدت أنكم تمثلون أربع دول ، وعلى الرغم من هذا ، فأنا أتلقَّى عرضًا من الولايات المتحدة وحدها ..

زمجر (ماليكوف) مرة أخرى ، وقال فى صرامة :

ـ ألا يكفيك هذا ؟!

أجابته فى صرامة مماثلة :

ـ كلا .. لا يكفينى .

بدا لحظة وكأنه سينفجر فى وجهها ، وهى تتطلَّع إلى عينيه مباشرة فى تحدٍّ ، إلا أنه فاجأ الجميع ، عندما تراجع فى مقعده ، وأشاح بوجهه مزمجرًا :

ـ يا للنساء !

تراجعت ظافرة ، وهى تقول :

ـ إننى أنتظر العرض نفسه من باقى الدول .

أجابها الإسرائيلى فى سرعة :

ـ نحن نوافق .

التفتت إليه ، فأضاف مبتسمًا فى تزلُّف :

ـ ومستعدون لتوقيع عقد رسمى أيضًا .

ابتسمت فى سخرية ، وأفلتت منها ضحكة قصيرة ، وهى تلتفت إلى الروسى والبريطانى ، فعقد سير (ويليام) حاجبيه ، وقال :

ـ لا بد من استشارة رئيس الوزراء أولاً .

مطَّ الروسى شفتيه ، وقال فى غلظة :

ـ لست أظنهم يوافقون .

قالت فى صرامة متحدية :

ـ ولست أظننى أوافق على الانضمام إليكم .

صاح بها فى حدة :

ـ هل تظنين أننا مضطرون إلى ضمك إلينا ؟!

نهضت فى حزم ، قائلة :

ـ لست أظن أحدنا مضطرًا إلى أى شىء .

بدا وكأن الاجتماع الأوّل سيفشل فشلاً ذريعًا ، وأن التحالف سينفض ، حتى قبل أن يلتئم ؛ لذا فقد هتف (راءول) ، وهو يثب من مكانه :

ـ مهلاً .. الأمور ليست حادة هكذا .. كل شىء قابل للتفاوض .

التفتت إلى (ماليكوف) ، وقالت فى حدة صارمة :

ـ ليس قبل أن يعتذر .

انعقد حاجبا (ماليكوف) ، فى توتر شديد ، وأشاح بوجهه فى غضب ، فأضافت فى غضب :

ـ أو أرحل من هنا دون رجعة .

تبادل رجال المخابرات الثلاثة نظرة متوترة ، قبل أن يقول سير (ويليام) فى برود :

ـ جنرال (ماليكوف) .

هتف (ماليكوف) فى غضب :

ـ لن أعتذر لها !

أجابه (سميث) فى حدة :

ـ بل ستفعل يا جنرال !

استدار إليه (ماليكوف) فى غضب شديد ، فتابع فى صرامة :

ـ لا يمكننا أن نفسد تحالفًا كهذا .

عقدت دونا (كارولينا) ذراعيها أمام صدرها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ ما زلت أنتظر .

مطّ (ماليكوف) شفتيه ، وبقى جامدًا لحظة ، وكأنه يدير الأمر فى رأسه ، ثم لم يلبث أن أدار عينيه إليها ، قائلاً فى عصبية :

ـ فليكن .. إننى أعتذر .

ثم استدرك فى حدة :

ـ لو أنك تظنين أننى قد أخطأت .

تألّقت عيناها فى ظَفَر ، وعادت إلى مقعدها فى بطء ، وتساءلت فى هدوء ، وكأن شيئًا لم يكن :

ـ حسنًا .. ماذا سنفعل مع (أدهم صبرى) ؟!

وكان هذا إيذانًا ببدء أقوى وأشرس صراع ، فى عالم المخابرات .

صراع بين أربعة من أقوى أجهزة المخابرات العالمية ، وأشرس منظمة إجرامية عالمية ، و ...

ورجل واحد ..

رجل المستحيل ..

كل المستحيل ..

★ ★ ★

ارتفع حاجبا (قدرى) ، خبير التزييف والتزوير فى إدارة المخابرات العامة المصرية ، عندما وقع بصره على (منى) ، وهو يَهُمّ بالتهام شطيرة ساخنة ضخمة ، وهتف فى حماس :

ـ (منى) .. كيف حالك يا عزيزتى ؟.. فترة طويلة مضت ، منذ التقينا آخر مرة !

قالت فى خفوت ، وبلهجة لم ترق له أبدًا :

ـ كيف حالك يا (قدرى) ؟!

تطلّع إليها فى دهشة ، وغمغم فى قلق :

ـ كيف حالك أنت ؟!.. تبدين بائسة للغاية !

زفرت على نحو ضاعف من قلقه ، وهى تجلس أمامه ، مجيبة :

ـ إننى كذلك !

أزاح شطيرته جانبًا ، وهو أمر نادر الحدوث ، واقترب بمقعده منها ، متسائلاً ، وقد بلغ قلقه ذروته :

ـ ولماذا ؟!

أشارت بيدها مجيبة :

ـ (أدهم) .. أشعر أننا قد أسأنا إليه كثيرًا .

ارتفع حاجباه ، فى دهشة وارتياع ، وهو يسألها :

ـ أسأنا إليه ؟!.. وكيف ؟!

هزّت كتفيها ، وارتعدت شفتاها ، وهى تجيب بصوت مختنق :

ـ لقد أنقذنا !

تضاعفت دهشته ، وهو يغمغم :

ـ ثُمَّ ماذا ؟!

أفزعته تلك الدموع ، التى انهمرت من عينيها ، وهى تجيب :

- ثُمَّ فقد عمله !

شعر بشفقة كبيرة عليها ، وبحزن لما تشعر به ، فمال نحوها ، وهمس فى تأثُّر شديد :

- كنت أتصوَّر أنك تعرفين (أدهم) ، أكثر من هذا !

قالت معترضة :

- إننى أعرفه ولاشك .

ابتسم فى حنان مشفق ، قائلاً :

- بل تحبينه !

خفضت عينيها ، فتابع :

- والحب يفسد كلمات العقل ، ويضع غشاوة على المنطق السليم .. ربما كنت تتصوَّرين أنك تعرفين (أدهم) جيدًا ، ولكننى صديقه منذ زمن طويل ، من قبل أن تعملى معنا ، بل حتى من قبل أن يعمل هو هنا ، وأزعم أننى خير من يعرفه ويفهمه .. وأهم ما تعلمته عنه ، هو أنه لا يشعر بالندم أبدًا ، ما دام يفعل ما يقتنعه ، وما ينشُده ، وهو مستعد دومًا لتحمُّل أشق العواقب ، ما دام قد فعل ما فعل ، بإرادة خالصة ، أو من أجل من يحب ، أو ما يؤمن به .

غمغمت :

- أعلم هذا ، ولكن ..

قاطعها فى حزم ، دون أن يفقد حنانه :

- ولكن ماذا ؟!.. (أدهم) قاتل وحارب ، وجازف بسلامته وحياته ؛ من أجل إنقاذنا .. ولقد أقدم على هذا ، وهو يدرك جيدًا عواقب الأمر .. ولو أنهم عزلوه عن قسم العمليات ، فهذا يفقدهم أكثر مما يُفقده .. ولأننى أعمل هنا منذ وقت طويل للغاية ، ربما يقارب سنوات عمرك ، فأنا واثق من أنهم هم ، وليس هو ، من سيدرك خطأ هذا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وسيعرفون أنه من أكبر الأخطاء أن يدفنوا مواهبه فى قسم تقليدى ، مثل قسم التدريب ، وقبل أن يمضى عام واحد ، سيعيدونه حتمًا إلى عمله ، وسينتهى كل هذا .. أنا أعلم هذا ، وهو أيضًا يعلمه ، ويثق فى حدوثه ؛ فلا داعى للقلق والحزن والمرارة ، ولا لهذا الانكسار ، الذى أراه على وجهك ، ويطلّ من عينيك .

رفعت عينيها إليه فى بطء ، وغمغمت :

- هل تعتقد هذا حقًّا ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يبتسم ، فتطلَّعت إليه لحظات فى صمت ، وهى تتساءل فى أعماق أعماقها : هل يؤمن حقًّا بما يقول ؟!..

هل ؟!..

★ ★ ★

أغلق (أدهم) عينيه فى استرخاء ، داخل الطائرة المتجهة إلى (باريس) ، وراح يسترجع كل المعلومات التى جمعها عن (هشام) ، مما أخبره به جده ، وما حواه ملفه فى جهاز المخابرات ..

كان شابًا رياضيًا ، قوى الإرادة ، تخرج فى كلية الآداب ، قسم علم نفس ، ثم تلقّى ترشيحًا للعمل فى المخابرات العامة ، ضمن من يقع الاختيار عليهم من المدنيين ، وسافر للحصول على شهادة الدكتوراه فى تخصصه ، من الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث يقيم هناك فى شقة صغيرة ، فى ولاية (فريجينيا) الأمريكية ، إلى جوار الجامعة .. ويشير تقرير متابعته إلى أنه يُولِى دراسته كل اهتمامه ، ولم تؤخذ عليه هفوة واحدة ، منذ وصل إلى (أمريكا) ، وحتى ورود آخر تقرير ..

وبالنسبة لـ (أدهم) ، كان هذا شابًا مثاليًا ، يتميز بالعزم والإرادة ، وباللياقة البدنية الملائمة ، وتربّى فى بيئة وطنية خالصة ، رضع فيها حب (مصر) ، حتى من قبل أن تتفتّح عيناه للدنيا ..

باختصار ، كان خامة مثالية لرجل مخابرات ناجح ..

كل ما ينقصه هو تدريب جيِّد ..

تدريب على يد محترف ..

ومن أجل السيِّد (حسن) ، زميل والده وصديق عمره ، سيتولى بنفسه هذه المهمة ..

كان يدرك جيِّدًا أنها مهمة بسيطة ، حتى مع محاولات المخابرات الأمريكية تجنيد الشاب ، ولكن كان من المستحيل أن يتخلّى عن الرجل الذى رباه مع والده ، ورعاه مع شقيقه بعد مصرع هذا الأخير ، وكان بالنسبة لهما أشبه بوالد بديل ، منحهما كل العناية والحنان والاهتمام ..

ثُمَّ إنه الشخص الذى رشحه للانضمام إلى جهاز المخابرات ..

بالإضافة إلى أن ملابسات المهمة كلها ، ستساعده على استعادة نشاطه وحيويته ، والحصول بدوره على بعض التدريبات ؛ حتى لا يسترخى فى عمله الروتينى الجديد ..

إنه يسافر إلى (باريس) كخطوة أولى ، منتحلاً شخصية صحفى يونانى ، مع جواز سفر شديد الإتقان ، صنعته الأصابع الذهبية لصديق عمره (قدرى) ..

وفى (باريس) ، يُفترَض أن يتحوّل إلى شخصية تاجر سيارات سويدى ، ويسافر بجواز سفر متقن آخر ، وبهذه الصفة الجديدة ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

استرخى أكثر ، وهو يفكّر فى أنها ليست أوّل مرة يفعل فيها هذا ، وأن المهمة فى مجملها تبدو بسيطة وتقليدية إلى أقصى حد ، ومن المؤكّد أنها ستمر فى هدوء ، دون أن يضطر حتى لمواجهة سلطات الأمن ، أو المخابرات الأمريكية ..

راح عقله يسترجع عمليات سابقة ، وأمورًا مشابهة ، والطائرة تنطلق به إلى (باريس) ، ليبدأ العملية ، التى بدت بسيطة ، وهو لا يدرك أنها ستصبح أخطر عملية فى حياته ..

أو ربما هى نهاية حياته نفسها ..

النهاية المحتومة ..

* * *

تراجع سير (ويليام) فى مقعده ، خلف مكتبه الكبير ، وهو يراجع تقريرًا مهمًا ، وردَه توًا ، قبل أن يضعه على سطح مكتبه ، ويسأل رجل المخابرات الإنجليزى ، الواقف أمامه :

ـ هل تم تأمين جميع المطارات ؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ جميع مطارات (أوروبا) يراقبها رجالنا ، وكلهم مزودون ببرنامج التعريف الرقمى ، الذى يمكنه كشف تنكُّر (أدهم صبرى) ، مهما بلغت براعته فى هذا المضمار .

التقط سير (ويليام) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ إنه بارع فى هذا المضمار، أكثر مما تتصوَّر .

ابتسم الرجل ، وقال فى ثقة :

ـ ربما يمكنه خداع الأعين البشرية ، ولكن من المستحيل أن يخدع (ريد آى) .

كان هذا هو الاسم ، الذى أطلقوه على جهاز رقْمىّ صغير ، لم يُطرَح للعامة بعد ، ولكنه يستخدم فقط فى أجهزة المخابرات الكبرى ، منذ بدأت الحملة الكبرى على الإرهاب المزعوم ..

جهاز يستخدم أشعة خفية ، لكشف أية وسائل تنكُّر ، مهما بلغت دقتها ، ويمكنه أن يستشف الملامح البشرية الحقيقية ، مهما كانت الأقنعة التى تخفيها ..

وكان الكل يثق فيه ثقة عمياء ..

فيما عدا سير (ويليام) ، الذى غمغم :

- من يدرى ؟!

كان قد قضى ليلته كلها ، منذ عودته من ذلك الاجتماع المشترك فى (أوسلو) ، فى مراجعة ذلك الملف الهائل ، الذى اشتركت فى إعداده أجهزة المخابرات المشاركة ، مع منظمة (المافيا) ، عن (أدهم صبرى) ..

لم يكن يجهل من هو (أدهم صبرى) ؛ فله ملف كامل لديهم ، وعلى الرغم من هذا فقد أذهله ما قرأه ، وهو المخضرم فى مجاله ..

فالملف الهائل يؤكِّد أن (أدهم) هذا أشبه بأبطال الأساطير ..

لقد هزم كل أجهزة المخابرات العالمية تقريبًا ..

المخابرات السوفيتية ..

والأمريكية ..

والإسرائيلية ..

وحتى مخابراته البريطانية ..

وبالإضافة إلى هذا ، فقد واجه وهزم أنظمة إجرامية رهيبة ..

المافيا ..

سكوربيون ..

وحتى منظمة مستر (X) ، الذى كاد يسيطر على العالم كله ..

والزعيمة .. تلك الأفعى ، التى انتصرت على دول وكيانات عملاقة ، ثم كانت نهايتها على يديه ..

ملف مدهش ، يجعلك تتصورّ أن ما نقرؤه ليس حقائق ، بل أساطير خرافية ، عن بطل خارق ، لا يُشَقُّ له غبار ..

بطل لا يفشل أو ينهزم ..

أبدًا ..

ومنذ أنهى مطالعة ذلك الملف ، فى الساعات الأولى من النهار ، كان قد بدأ يتشكك فيما يفعلون ..

صحيح أن اجتماع أربعة أجهزة مخابرات عالمية ، ضد رجل واحد ، ليس بالأمر السهل ، ولكنه ، ولسبب ما ، يشعر بشك هائل يتعاظم داخله ..

شك فى أن يحقِّق تحالفهم انتصارًا ، فى هذه اللعبة ..

شك ، لا يدرى سببه ..

أو حتى منطقيته ..

فباجتماع أربعتهم ، مع منظمة (المافيا) ، يصبح بإمكانهم السيطرة على العالم أجمع ، بحيث لا يتركون لـ (أدهم) مكانًا أو فرصة واحدة للفرار ، مهما بلغت مهاراته ومواهبه وقدراته ..

ومهما فعل ..

ثُمَّ إنهم ، ولأوّل مرة فى التاريخ ، يواجهونه ببرامج إليكترونية ورقمية حديثة ، معدّة كلها من أجله وحده ..

برنامج الكمبيوتر الخاص بشخصيته الافتراضية ، يمكنه دراسة وحساب كل ردود أفعاله المتوقّعة والمنتظرة ، على نحو تبلغ دقّته ثمانية وتسعين فى المائة تقريبًا ..

و (ريد آى) قادر على كشف تنكره ، فى أية لحظة ، وتحت أية مقاييس ..

أضف إلى هذا أن العقول الفائقة ، لأربعة أجهزة مخابرات ، والعقول الإجرامية لمنظمة (المافيا) ، كلها تعمل للظفر به ..

ودون ترك فرصة واحدة ، مهما بلغت ضآلتها ، للخطأ ..

لأدنى خطأ ..

ووفقًا لأية حسابات منطقية ، المفترض أن يعنى هذا نهاية (أدهم صبرى) ، ومَحْوَ تاريخه ، وإغلاق ملفه إلى الأبد ..

كل الحسابات تؤكّد هذا ..

حتى حسابات الكمبيوتر الافتراضى ..

وعلى الرغم من هذا ، ما زال سير (ويليام) يشعر بالشك والقلق ..

ولا يفهم حتى لماذا يشعر بهما !!..

أهى مجرد مخاوف ، أم هى غريزة رجل مخابرات قديم ، أصبح يستشعر الخطر ، ويشم رائحته فى الهواء ، حتى قبل أن تنبعث ؟!..

أم إنها ..

قاطعه رجل المخابرات ، الذى ما زال يقف أمامه ، وهو يقول فى حماس :

ـ لقد وصل !

التفت إليه سير (ويليام) بحركة حادة ؛ ليسأله فى انفعال :

ـ أين ؟!

أجابه بلهجة ظافرة :

ـ إلى مطار (أورلى) فى (باريس) .. رجلنا هناك يقول : إنه ينتحل شخصية صحفى يونانى ، ويُدعَى (نيكولاس كرياكوس) ،

وإن تنكُّره كان مذهلاً ، ولكن (ريد آى) كشف ملامحه الأصلية ، وتعرَّفها ، من تحت تنكره .

وهزَّ رأسه ، مضيفًا :

ـ من الواضح أن هذا الجهاز رائع .

عقد سير (ويليام) حاجبيه دون تعليق ، والتقط سمَّاعة الهاتف ؛ ليُجرى اتصاله بشركائه ، فى هذه المهمة الخاصة ..

فبالنسبة إليه ، وإلى الخطة التى وضعوها ، فقد كان هذا يعنى أن العملية قد بدأت ..

ولا أحد يدرى كيف يمكن أن تنتهى ..

كيف ؟!

* * *

4- باريس ..

تألَّقت عينا رجل (الموساد) (راءول) ، على نحو مخيف ، وهو ينهى محادثته مع سير (ويليام) ، والتفت إلى رئيسه قائلاً :

ـ خطتنا تسير على ما يرام .

بدا رئيسه شديد الاهتمام ، وهو يسأله :

ـ هل بدأ تحركه بالفعل ؟!

ابتسم مجيبًا :

ـ وصل إلى (باريس) ، منتحلاً شخصية صحفى يونانى ، ولقد رصدوه عندما كشفه ذلك الكاشف الرقمى الجديد (ريد آى) .

تراجع رئيسه فى مقعده ، قائلاً :

ـ أتعشم ألا يبادروا بالهجوم عليه .

هزَّ (راءول) رأسه ، وقال :

ـ لن يفعلوا .. الكمبيوتر الافتراضى أكَّد أنه سيقاوم بكل شراسة ، وأن كل نظم الأمن لن تنجح فى كبح جماحه ، فى مطار مفتوح ، مزدحم بالمسافرين والقادمين .

عقد رئيسه حاجبيه ، وقال :

ـ سيتركونه يدخل إلى (باريس) إذن .

أومأ (راعول) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ (باريس) ليست ساحة القتال المنتظرة .. وفقًا لما أشار به الكمبيوتر الافتراضى ؛ فحصاره والقضاء عليه سيكونان أفضل وأضمن فى الولايات المتحدة الأمريكية .

مال رئيسه نحوه ، وقال بلهجة خاصة :

ـ الكمبيوتر افترض هذا ؟!

ابتسم (راعول) فى خبث ، وهو يجيب :

ـ ما غذيناه به ، جعله يفترض هذا .

وصمت لحظة ، ثم أشار بيده مضيفًا :

ـ المهم أن ينشغلوا بمطاردته ، وبالدخول معه فى قتال عنيف ، يلهيهم عن خطتنا الفعلية ، ويلهيه أيضًا عنها .

سأله رئيسه :

ـ وماذا لو نجحوا فى القضاء عليه بسرعة ، والتفتوا إلينا ؟!

هزَّ (راعول) رأسه نفيًا ، فى بطء ، وهو يقول :

ـ لن يمكنهم هذا .. أنت تعرفه مثلما أعرفه ، ولقد بذلنا جهودًا خارقة ، طوال السنوات الماضية ؛ للقضاء عليه ، ولكننا لم نفلح فى هذا قط ، على الرغم من كل ما فعلناه .

مطَّ رئيسه شفتيه ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ هذه المرة تختلف .

عاد (راعول) يهز رأسه قائلاً :

ـ لن تختلف كثيرًا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ إنه ليس بالرجل العادى .

قال رئيسه فى صرامة :

ـ إنه بشرى ، مهما بلغت مهاراته .

أشار (راعول) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ المهم أن يقاتلهم لأطول فترة ممكنة ، حتى يمنحنا كل الوقت ، لكى ننفذ خطتنا الأصلية .

وعادت عيناه تتألقان ، وهو يضيف :

ـ خطة السيطرة .

تراجع رئيسه ، وهو ينظر إلى تألُّق عينيه فى قلق ، وهو يكمل :

ـ السيطرة على العالم كله !

ولقد نطقها على نحو مخيف ..

مخيف للغاية ..

★ ★ ★

« مسيو (نيكولاس كرياكوس) .. »

ارتفع صوت موظفة استقبال فندق (ريـنز) فى (بـاريس) ، وهى تنادى ذلك الاسم ، الذى ينتحله (أدهـم) ، فتقدَّم منهـا هذا الأخير ، وبدت لُغته الفرنسية ركيكة ، ممتزجـة بعبارات وكلمـات يونانية ، وهو يسألها :

ـ هل خلَتْ حجرتى ؟!

ناولته مفتاح الحجرة ، وهى تقول ، مع ابتسامة عذبة :

ـ نعم يا مسيو (كريـاكوس) ، ونعتذر بشدة عن الانتظـار ، فقد وصلت طائرتك مبكرًا .

التقط المفتاح ، وهو يقول :

ـ لا عليك .. المهم أننـى سأنام فور صعودى إلـى الحجرة ، ولا أريد إزعاجًا ، أو حتى خدمات ، قبل أن أستيقظ غدًا .

أجابته بنفس الابتسامة :

ـ بالتأكيد مسيو (كرياكوس) .. بالتأكيد .

اتجـه إلـى المصعد ، حـاملاً حقيبتـه الوحيـدة ، واسـتقلَّه إلـى الطابق الرابع حيث حجرته ، وأمام كاميرات الأمن ، وعيون خـدم الفنـدق ، تثـاءب فـى قـوة ، قبل أن يفتـح بـاب حجرتـه ، ويدلـف داخلها ، ويغلقه خلفه ، بعد أن علّق على أكرتـه الخارجيـة ، تلك الإشعارات الجاهزة ، التى تطالب بعدم الإزعاج ..

وما إن أصـبح داخـل الحجرة ، حتى دب فيـه فجأة نشاط جم ، فنزع الباروكة التى يرتديها ودسَّها داخـل حقيبته ، وانـتزع الشـارب واللحية المستعارَيْن ، ثم التقط من الحقيبة باروكة شقراء ، وزوجين من العدسات اللاصقة الزرقاء ، واتجه إلى المرآة ، وراح يبدِّل هيئتـه فى سرعة ونشاط ..

استغرق منه هذا نصف ساعة كاملة ، بات من المستحيل بعدهـا أن تجد أدنى تشابه بين الهيئة التـى انتهـى إليها ، والهيئـة التـى دلف بها إلى الحجرة ..

وبحركة سريعة ، خلع سترته ، وقلَبها ، وارتداها على وجههـا الآخر ، وأضـاف إليهـا بعض الإكسسـوارات البسيطة ؛ ليتشـابه تمامًا مع الصورة ، التى يحويهـا جـواز السفر السويدى ، الـذى التقطه أيضًا من الحقيبة ..

وفى خفة ، تسلل خارج الحجرة ، دون أن يراه أحد ، واستقل المصعد إلى الطابق الأرضى ، وسار فى هدوء ، أمام أعين الجميع ، ليغادر الفندق وهو ممتلئ بالثقة والهدوء ..

وهناك ، فى ركن الفندق ، وقف رجل قصير ، يطالع ما بدا كأنه كتاب جديد ، عن التغيرات البيئية فى القرن الحادى والعشرين ، ولكن الواقع أن عينيه لم تكونا تطالعان صفحات مطبوعة ، وإنما شاشة بقياس ست بوصات ، تنقل صور كل من يغادر الفندق ..

وعندما مرّ (أدهم) أمامه ، أطلق الجهاز الشبيه بالكتاب أزيزًا قصيرًا تنبيهيًّا ، قبل أن تصطبغ شاشته باللون الأحمر ، ويظهر عليها وجه (أدهم) كما نعرفه ، محاطًا بإطار أحمر سميك ، يمثل كل ما أضافه إلى هيئته ، من أدوات ووسائل تنكر ..

وفور كشفه هذا ، ضغط الرجل زرًا فى ركن الجهاز ، ومال نحوه يهمس فى انفعال :

ـ إنه يغادر الفندق ، فى هيئة سائح أشقر ، يرتدى سترة زرقاء ، وسروالاً رماديًّا !

استقبل رسالته ثلاثة من الرجال ، تحركوا على نحو مدروس ؛ ليبدءوا عملية مراقبة بالغة الدقة ، تم تخطيطها وإعدادها مسبقًا ..

مطاردة ، الغرض الأساسى منها ، هو تحديد مسار واتجاه الرجل ..

رجل المستحيل ..

وفى وقت واحد تقريبًا ، علمت مخابرات الدول الأربع بما حدث ، واندفع الكولونيل (سميث) إلى رئيسه ، هاتفًا :

ـ لقد أبدل شخصيته فى (باريس) .

غمغم رئيسه :

ـ هذا ما كنا نتوقَّعه .

تردد (سميث) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ لست أستطيع استيعاب أن نقف موقف المتفرِّج ، ونحن نحاصره على هذا النحو !!.. لماذا لا ننقض عليه الآن ، ونمطره برصاصاتنا ، فى قلب (باريس) ؟!

أجابه رئيسه فى صرامة :

ـ لأن هذا غير مضمون .

قال (سميث) فى حماس :

ـ وكيف هذا ؟!.. لنا أكثر من خمسين عميلاً فى (باريس) ، ويمكننا أن نطلقهم جميعًا خلفه ، خلال دقيقة واحدة ، والروس والبريطانيون والإسرائيليون لديهم أكثر من مائتى عميل ، أى إننا نستطيع محاصرته ، فى قلب العاصمة الفرنسية ، بأكثر من مائتين وخمسين رجلاً ، بحيث لا يجد ثغرة واحدة للفرار .

أجابه رئيسه ، فى صرامة أكثر :

ـ ما زال هذا غير مضمون .

ثم استدار إليه بوجه شديد الاحتقان ، مستطردًا :

ـ (أدهم صبرى) رجل مخابرات يفوق المعتاد والمألوف ، وعندما تتصوَّر أنك قد أحكمت الحصار حوله ، يفاجئك دومًا بما لا تتوقعه ، ويحوِّل الدفة من الدفاع إلى الهجوم ، فتنقلب الأمور رأسًا على عقب ، وتتحول أنت إلى الفريسة ، بعد أن كنت شيخ الصيادين .

انعقد حاجبا (سميث) ، وهو يتمتم فى عصبية :

ـ إلى هذا الحد ؟!

سأله رئيسه فى صرامة :

ـ ألم تقرأ ملفه ؟!

غمغم (سميث) :

ـ بلى .. ولكن ...

قاطعه بزمجرة صارمة :

ـ لا يوجد لكن .. هناك خطة ، وضعتها مخابرات أربع دول ، وشاركت فى وضعها أقوى وأخطر منظمة فى العالم أجمع ، وهى خطة شديدة الدقة ، وتعتمد ، ولأوّل مرة ، على أسس علمية ، وتكنولوجيا فائقة .. والوسيلة الوحيدة لإنجاحها ، هى الالتزام بكل خطواتها بمنتهى الدقة ، دون أدنى تجاوز .

بدا (سميث) معترضًا ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أن نصبح جميعًا عبيدًا للكمبيوتر !

رمقه رئيسه بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـ ألسنا كلنا كذلك ، فى هذا العصر ؟!

انعقد حاجبا (سميث) مرة أخرى ، وتمتم :

ـ بلى .

وهَمَّ بالانصراف ، إلا أنه توقَّف فجأة ، والتفت إلى رئيسه ، يسأله :

ـ سؤال أخير .. من وضع البرنامج الافتراضى ، الذى نسير على هَدْيه ؟!

صمت رئيسه لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ أكثر خصومه شراسة .

ثم التفت إليه مستطردًا :

ـ الإسرائيليون .

وهنا ، بدت الصورة واضحة .. للغـاية ..

★ ★ ★

ابتسمت موظفة مكتب الخطوط الجوية الأمريكية فى (بـاريس) ، وهى تستقبل (أدهم) ، الـذى ينتحل شخصية تـاجر السيـارات السويدى (هانز فاولر) ، قائلة :

ـ كيف يمكننى أن أخدِمك يا سيِّدى ؟!

أجابها (أدهم) فى هدوء ، بفرنسية ذات لكنة سويدية :

ـ أريد تَذكرة ذَهاب وإياب ، إلى (نيويورك) ، فى طائرة الصباح .

مالت الموظفة تنظر إلى شاشة الكمبيوتر ، وكأنها تتأكد من المقاعد الخالية ، ولكن الواقع أنها كانت تتفحّص صورة ، تم إرسالها إليهـا ، عبر كمبيوتر يدوى صغير ، لـ (أدهم) فى هيئته التى يقف بها أمامها ، وعلى الرغم منها ، حملت ابتسامتها التالية انفعالها ، وهى تقول :

ـ لو أنك ترغب فى السفر مبكرًا ، فهنـاك مقـاعد خاليـة ، فـى طائرة منتصف الليل .

هزّ رأسه نفيًا بكل الهدوء ، مجيبًا :

ـ كلا .. أفضّل طائرة الصباح .

ضربت أزرار الكمبيوتر ، فى شىء من التوتر ، وهى تسأله :

ـ الاسم من فضلك .

أجابها ، وعيناه تطالعان اللافتات الدّعائية فى المكتب :

ـ (فاولر) .. (هانز فاولر) .

بدت وكأنها تسجّل الاسم ، ولكن الواقع أنها كانت ترسل تفاصيل الحجز ، إلى نفس الكمبيوتر ، الذى أرسل إليها الصورة ..

وفى نفس اللحظة ، تم إرسال البيانات إلـى أجهزة المخـابرات الأربعة ، وإلى دونا (كارولينا) ، التى انعقد حاجباها فـى شدة ، وهى تستقبلها مغمغمة :

ـ تاجر سيارات سويدى ؟!

حـاولت أن تسترخى فـى مقعدهـا ، بعـد أن قـرأت الرسـالة ، ولكنها عجزت عن هذا ، مع ذلك التوتر الشديد ، الذى تصاعد فى أعماقها ، وواصل تصاعده ، منذ أن وصلتها تلك المعلومة ..

وفى حركة عصبية ، أشعلت سيجارتها الملوّنة ، وغمغمت :

ـ يبدو أنهم سيظفرون بك هذه المرة يا (أدهم) .

لم يتقبَّل جسدها الجلوس بعدها ، أو حتى الاسترخاء ، فنهضت بحركة حادة ، واتجهت نحو شرفة قصرها ، المطلة على البحر المتوسِّط ، ونفثت دخان سيجارتها ، ليمتزج مع نسيم البحر ، وهى تطلق العنان لأفكارها ..

لقد عرفت (أدهم) منذ زمن طويل ..

حتى من قبل أن تصبح زعيمة منظمة (المافيا) ..

عرفته عندما حطَّم أشقاءها واحدًا بعد الآخر(*) ..

وعندما واجهها مباشرة(**) ..

وعندما حسم صراعه معها(***) ..

وعلى الرغم من كل ما كبَّدها إياه من متاعب وخسارة ، لايمكنها أن تنكر أنها قد أحبته .. أحبت عدوّها ..

تمامًا كتعاليم السيِّد المسيح ..

أحبوا أعداءكم ..

(★) راجع قصة (حلفاء لشر) .. المغامرة رقم (12) ..

(★★) راجع قصة (دونا كارولينا) .. المغامرة رقم (60) ..

(★★★) راجع قصة (المحترفون) .. المغامرة رقم (144) ..

ربما لم يكن يقصد هذا المعنى بالتحديد ..

ولكن هذا ما فعلته ..

أحبته ..

لأنها أنثى إيطالية حارة ، تفيض بالمشاعر الجيَّاشة ، التى تكتمها فى أعماقها ، بحكم زعامتها لمنظمة هائلة ، فقد تفجَّرت كل تلك المشاعر دُفعة واحدة ، عندما وجدت أمامها الرجل ، الذى تحلم به كل أنثى ..

الفارس ..

القوى ..

الشجاع ..

الذكى ..

الحسَّاس ..

الرجل الذى يجمع بين قبضة فولاذية ، ويد حانية ..

فى البداية حاربته ..

ثم هادنته ..

ثم غرِقت فى حبه حتى النخاع ..

لأنها أنثى إيطالية أحبته ..

ولأنها زعيمة إيطالية ، كتمت هذا الحب فى أعماقها ..

وسجنته خلف أسوار قلبها ..

وحاربته ..

وحاولت قتله ..

ولكن هيهات ..

حبه ظلّ هناك ، فى أعمق أعماق قلبها ..

ظلّ حبيسًا ..

متأججًا ..

متمردًا ..

ظلّ طوال الوقت يسعى للفرار ، والإعلان عن نفسه ، بكل الجُرأة والوضوح ..

وفى لحظة ما ، تمنّت لو ألقت نفسها بين ذراعيه أمام الجميع ..

لو صرخت بحبها له ، حتى لو أفقدها هذا كل شىء ..

الثروة ..

والقـوة ..

والزعامة ..

فى لحظة ما ، شعَرت أن فوزها به يفوق الثروة والقوة والزعامة ..

يكفى أن تشعر بين ذراعيه بالأمان ..

كل الأمان ..

ولكنها ، فى تلك اللحظة بالتحديد ، أدركت أنه من المستحيل أن يحبها (أدهم) ، حتى لو عشقته حتى النخاع ..

هذا لأن (أدهم) عاشق حتى أذنيه لأخرى ..

لزميلته (منى توفيق) ..

زميلته ، التى لم ولا ولن يتردّد فى التضحية من أجلها بحياته ، لو اقتضى الأمر ..

زميلته ، وحبيبته ، التـى تشعل كل غضب وثورة الدنيا فى أعماقه ، لو مس أحد شعرة واحدة منها ..

شعرة ، قد تجعله يحارب أنظمة ودولاً كاملة ، ويسحق عمالقة بلا هوادة ؛ ثمنًا لها ..

وكم حسدتها على هذا الحب !

كم تمنت لو تحظى به ، ولو لحظة واحدة ، فى حياتها كلها !

ولقد تمنت أكثر ، أن تقتل تلك التى يحبها ..

ولكنها لم تفعل ..

كانت تعلم أنها لو مست شعرة واحدة منها ، فستخسر (أدهم) ، إلى أبد الآبدين ..

بل ربما تخسر منظمتها ، وزعامتها ، وقوتها أيضًا ..

زعامتها أجبرتها على أن تفكّر بهذا الأسلوب العملى ، وأن تقتل كل مشاعر الأنثى ، ولو لفترة ما ..

وها هى ذى الآن تنضم إلى تحالف عالمى ، يستهدف القضاء على الرجل ، الذى أحبته كما لم تحب مخلوقًا من قبل ..

صحيح أن ضمها إليهم ، يعنى الاعتراف بمكانتها العالمية ، وبقدرة منظمتها على مناطحة دول بأكملها ..

ولكن الثمن فادح ..

فادح للغاية ..

لكى تحظى الزعيمة بكل هذا ؛ على الأنثى أن تلغى مشاعرها ..

أن تشارك فى قتل حبيبها ..

حبيبها الوحيد ..

نفثت دخان سيجارتها الملوّنة فى عصبية شديدة ، عندما بلغ تفكيرها هذا الحد ، ثم انتزعتها من شفتيها بحركة حادة ، وألقتها بكل قوتها بعيدًا ، وتابعتها ببصرها وهى تسقط وسْط أعشاب حديقتها الواسعة ، ورأت أحد الخدم يسرع إلى التقاطها ؛ حتى لا تلوّث نقاء الحديقة ..

ولسبب ما ، شعرت بالحَنَق من كل هذا النظام ..

من كل هذه القوة ..

والسطوة ..

والزعامة ..

وعلى الرغم منها ، حاول عقلها أن يجد مبرّرًا لكل ما ستفعله ..

ربما يكون قتل (أدهم) أفضل ..

على الأقل ، ستضمن ألا تحصل عليه غيرها ..

عادت تلقى جسدها على الأريكة ، وتحاول استيعاب هذا المنطق ، قبل أن تتخذ قرارًا حاسمًا ..

اتخذته كزعيمة ..

لا كأنثى ..

وبكل عصبيتها ، هتفت :

ـ (مـاريو) !

مضت لحظات ، قبل أن يدلـف إلـى حجرتهـا شـاب مفتـول العضلات ، طويل الشعر ، خاطبها بمنتهى الاحترام :

ـ أوامرك يا دونا .

اعتدلت تقول فى صرامـة ، وقـد أخمدت الأنثى فى أعماقها ، وأيقظت الزعيمة :

ـ عندى مهمة عسيرة لك ..

قال فى سرعة :

ـ أنا رهن إشارتك .

انتظرت ، حتى أشعلت سيجارة ملوَّنة أخرى ، وأضافت :

ـ ستسافر الآن ، إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

نطقتها بمنتهى الحزم والحسم ..

وكانت تبدأ دورها فى الخُطة ..

خطة محو (أدهم صبرى) من الوجود ..

إلى الأبد ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا الجنرال (ماليكوف) الكثَّان فى شدة ، وهو يطـالع ذلك التقرير ، الذى قدَّمه إليه المـاجور (بولانسكى) ، رجله الأوَّل ، ثم رفع عينيه إليه ، قائلاً فى صرامة شديدة :

ـ هل رصدتَه بنفسك ؟!

أومأ (بولانسكى) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ وصل منذ ساعتين إلى مطـار (موسكو) ، بجـواز سفر دبلوماسى ، واستقل بعدها بساعة واحدة الطائرة المتجهة إلـى (لينينجراد) ، وعن طريق مكتبنا هنـاك ، علمت أن هنـاك طـائرة خاصة تنتظره ، وقائدها لا يعلم وجهتها بعدُ .

ازداد انعقـاد حاجبَىْ (ماليكوف) ، وهو يفكِّر فى الأمر بعمق ، وتراجع فى مقعده بمنتهى البطء ، محاولاً فهم ما يحدث ..

المفترض ، وفقًا لاجتماع (أوسلو) ، أن يعمل الكل كيد واحدة ، من أجل هدف واحد ..

ولكن ها هو ذلك الإسرائيلى (راعول) ، يعمل منفردًا ..

ويستهدف شيئًا ما ..

شيئًا هناك ..

على أرضه هو ..

وهذا يعنى أن الإسرائيليين يُخفون شيئًا ما ..

شيئًا سيزيدهم قوة ..

حتمًا ..

هذا هو أسلوبهم ، الذى اعتاده ، وتعامل معه ، طوال سنوات وسنوات .. لا يحسبون حسابًا لأية اتفاقيات ..

أو قواعد ..

أو حتى تحالفات ..

كل ما يهمهم هو مصلحتهم ..

مصلحتهم وحدها ..

ثم إنهم الذين وضعوا برنامج الكمبيوتر الافتراضى ، الذى يستخدمه كل الأطراف ؛ لمطاردة وحصار (أدهم صبرى) ..

فمن أدراه أنهم مخلصون فى هذا ؟!

طوال سنوات عمله ، منذ المخابرات السوفيتية ، وحتى المخابرات الروسية(*) ، لم يثق بهم مرة واحدة ..

(★) إبّان وجود الاتحاد السوفيتى ، كانت المخابرات السوفيتية (KGB) ، تتولى كل شئون الأمن ، داخليًا وخارجيًا ، وبعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، انقسمت إلى ثلاثة أقسام : المخابرات الروسية (FSK) ، والأمن الداخلى ، وجهاز حرس الحدود .

وحتى فى هذه العملية المشتركة ، لا يمكنه أن يثق بهم ، على الرغم من أن رؤساءه يُولُونهم كل الثقة ، لمجرَّد أنهم قدموا خطة متكاملة ، للقضاء على رجل المخابرات المصرى ، الذى طالما كبَّدهم خسائر فادحة ..

ولكن شكوكه وانعدام ثقته ، أسفرا عن نتيجة مدهشة ..

لقد رصد رحلة (راعول) ، التى لم يعلن عنها ..

والتى لم تُعرَف وجهتها بعد ..

أو هدفها ..

وعلى الرغم من كل تعليمات رؤسائه ، لن يصمت على هذا أبدًا ..

سيسعى خلف (راعول) ..

مهما كان الثمن ..

اعتدل بحركة حادة ، عندما بلغ بتفكيره هذا الحد ، وقال للماجور (بولانسكى) فى صرامة :

ـ ستعاوننى فى هذا الأمر ، أيها الرفيق (بولانسكى) .

لم يكن هناك من يستخدم مصطلح (الرفيق) هذا ، فى تلك الفترة ، ولكن (بولانسكى) استجاب له بحركة قوية ، شدّ خلالها قامته ، وأجاب فى حسم :

ـ رهنُ إشارتك ، أيها الرفيق الجنرال .

عاد (ماليكوف) يعقد حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :

ـ وسيتم هذا سرًا ، فلن يعرف أحد سوانا بأمر هذه المهمة الخاصة .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بكل صرامة :

ـ الخاصة جدًا .

أجابه (بولانسكى) بنفس الحسم :

ـ مر بما تريد ، أيها الرفيق الجنرال .

عاد (ماليكوف) يتراجع فى مقعده ، وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ أريد أن أعرف وجهة هذا الإسرائيلى بالضبط ، وهدفه ، وما يسعى إليه .

قال (بولانسكى) فى قوة :

ـ فورًا ، أيها الرفيق الجنرال .

قال (ماليكوف) :

ـ حاول أن تفعل كل شىء بنفسك .. سآمر بأن تنقُلك طائرة نفاثة عسكرية إلى (لينينجراد) فورًا ، وسأعمل على تعطيل تلك الطائرة الخاصة هناك ، على نحو غير ملحوظ .. المهم أن تتبعهم ، دون أن يشعروا بك .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يواصل ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ لا بد وأن نعرف ، ما الذى يخطط له الإسرائيليون .

نعم .. هذا هو السؤال ..

أخطر سؤال ..

ماذا يريد الإسرائيليون فعلاً ؟!..

مـاذا ؟!

★ ★ ★

5ـ الإســرائيليـون ..

لأوّل مرة فى حياته ، شعر (قدرى) بفقدان تام للشهية ، وهو يتطلّع إلى (منى) ، التى بدت صامتةً حزينة ، على نحو لم يعهده من قبل ، حتى عندما كانا أسيرَيْن ، فى قبو مزرعة (جاكسون) ، فى (تكساس) (*) ..

كان من الواضح أنها ، وعلى الرغم من زياراتها المتكرِّرة للطبيب النفسى الخاص بجهاز المخابرات ، لم تتجاوز بعدُ مرحلة الاكتئاب ، والشعور بالذنب تجاه (أدهم) ..

(أدهم) الذى أحبته وعشقته ، كما لم تحب أو تعشق فى حياتها كلها ..

أو ربما هو الرجل الوحيد الذى أحبته ، فى عمرها بأكمله ..

الرجل الذى قاتل من أجلها ، وجازف بعمره كله ، من أجل سلامتها ..

والذى فقد وظيفته من أجلها ..

من أجلهم جميعًا ..

« (أدهم) سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. »

(*) راجع قصة (الإرهاب) ... المغامرة رقم (155) .

لم يجد ما يقوله سوى هذا ، فرفعت (منى) عينيها إليه بحركة حادة ، مغمغمة فى انفعال :

ـ سافر ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ المفترض ألا يعلم أحد بهذا ، ولكننى أعرفه بحكم ... أنت تعلمين .

بدا كأن الخبر قد انتزعها فجأة من اكتئابها ، وجعلها تنقل مقعدها إلى جوار (قدرى) ، وهى تسأله فى شغف :

ـ أليس من المفترض أنه مدير قسم التدريب ؟!

أجابها فى اهتمام :

ـ بلى ، ولكن يبدو أن ..

دفعها شغفها إلى مقاطعته فى حماس :

ـ هل تعتقد أنه يسافر لغرض آخر ؟!

هزّ رأسه فى تردُّد حذر ، مغمغمًا :

ـ ربما .

تألّقت عيناها ، وبدت جَذْلَى ، لأوّل مرة ، منذ عودتهم من الأسر ، وهى تقول :

ـ إنها مهمة سرية .. لاشك فى هذا .

كانت تتحرَّك حوله ، فى انفعال شديد ، وهى تكمل :

ـ لقد أدركوا أن قدراته أكبر من أن يدفنوها ، فى مهنة بسيطة ، مثل مهنة المدرِّب .

غمغم (قدرى) :

ـ المدرِّب ليس مهنة بسيطة ، فى عالمنا هذا .

هتفت فى حماس :

ـ ولكنها أقل بكثير من قدرات رجل مثله ، حتى لو كان رئيس قسم التدريب .. أليس كذلك ؟!.. أليس كذلك يا (قدرى) ؟!

كرَّر ، فى حذر أكثر :

ـ ربمـا .

لم يَبْدُ حتى أنها قد سمعت جوابه ، وهى تلتقط نفسًا عميقًا ، وتسترخى فى مقعدها ، أو تحاول هذا ، وهى تقول :

ـ عظيم .. هذا أفضل .. هذا يناسبه أكثر ، دون شك .

لم يعلِّق (قدرى) على عبارتها ..

بل لم يحاول حتى أن يفعل ..

فالواقع أن أحدًا لم يخبره قط بالسبب الحقيقى لسفر (أدهم) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، التـى يحلـم كل رجل أمن فيها بإلقاء القبض عليه ، أو تصفيته ..

ولكن هناك ، فى جزء مـا من أعماقه ، كـان (قـدرى) يشـعر بقلق عارم ..

شىء ما ، لم يدر له سببًا ، أنبأه بـأن هـذه المهمة ، أيًّا كانت ماهيتها ، لن تكون عادية أبدًا ، فى حياة (أدهم) ..

وأنها ستكون دقيقة ..

خطيرة ..

وربما قاتلة أيضًا ..

بـل لقد شـعر أن نهايتهـا ستختلف ، عن نهايـة كـل مهامـه السابقة ..

وأنها ستحمل لرجل المستحيل ما لا يتوقَّعه ..

ما لا يتوقعه أبدًا ..

* * *

لم يكد سير (ويليام) يصل إلى مطار (أورلى) فى (باريس)، حتى استقبله فريق خاص من رجال المخابرات البريطانية، نقله مباشرة إلى أحد المنازل الآمنة البريطانية فى قلب (باريس)، وهناك سأل أعلاهم رتبة فى حزم:

ـ كيف الموقف الآن ؟

أجابه الرجل على الفور:

ـ لقد انتقل إلى فندق صغير، فى الحى اللاتينى، يحاصره الآن فريق من رجالنا، ومن الأمريكيين والروس.

سأله:

ـ وماذا عن الإسرائيليين ؟

أجابه الرجل فى اهتمام:

ـ وفقًا للخطة، سيبدأ عملهم فى (فرجينيا) ..

غمغم فى ضيق:

ـ بالطبع .. سيدخرون جهدهم للنهاية.

لم يجرؤ أحدهم على التعليق على عبارته، فسألهم، وهو ينزع قفازيه:

ـ هل أحكمتم الحصار ؟.. ذلك الرجل يستطيع الإفلات، لو تركتم له ثقب إبرة.

أجابه رجل آخر:

ـ اطمئن يا سير (ويليام) .. كل الطاقم مزوَّد بأجهزة (ريد آى)، ولو أنه تنكر فى أية هيئة، فسيتم كشفه حتمًا.

مطَّ شفتيه، كأنه غير مقتنع، وغمغم:

ـ المفترض هذا.

أدهشهم تعليقه هذا، ولكنهم لاذوا بالصمت فى احترام، فجلس فى هدوء وأناقة على مقعد قريب، وهَمَّ بقول شىء ما، عندما ارتفع رنين هاتفه الخاص فجأة، فالتقطه بحركة رشيقة، بعد أن ألقى نظرة سريعة على شاشته:

ـ مرحبًا يا جنرال .. الأمور تسير هنا وفقًا للخطة.

عقد (ماليكوف) حاجبيه الكثَّين، عند الطرف الآخر، وهو يقول فى صرامة:

ـ ولكنها ليست كذلك هنا.

لم تكن الخطة الأساسية تتضمن أية محاور فى (روسيا)، فى المرحلة الأولى منها؛ لذا فقد اعتدل سير (ويليام)، وهو يسأله:

ـ ماذا تعنى بهذا ؟!

أجابه بنفس الصرامة ، وهو يتراجع فى مقعده فى توتر :

ـ ذلك الإسرائيلى هنا !

بدا سير (ويليام) حذرًا ، وهو يقول :

ـ أى إسرائيلى ؟!

أجابه (ماليكوف) فى حدة :

ـ ذلك الإسرائيلى (راعول) ، جاء إلى هنا بجواز سفر دبلوماسى ، ويتحرَّك على نحو مريب .

انتقل توتره وانتقلت شكوكه إلى رجل المخابرات البريطانى ، وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى بنحو مريب ؟!

لم يكن أسلوب التساؤل هذا يروق للجنرال (ماليكوف) ، الذى اعتاد ، منذ التحاقه بالمخابرات السوفيتية فى شبابه ، على أن يلقى هو الأسئلة ، ويتلقَّى الأجوبة فحسب ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، أجاب :

ـ لقد وصل إلى (موسكو) ، دون أن يبلغنا ، واستقل فور وصوله طائرة إلى (لينينجراد) ، وسينطلق بطائرة خاصة ، خلال لحظات ، إلى وجهة ما زلنا نجهلها .

سأله (ويليام) ، وقد امتزج اهتمامه بقلقه :

ـ ما الذى يسعى إليه بالضبط ؟!

أجابه (ماليكوف) :

ـ هذا ما أحاول الحصول على إجابته .

لم يلق (ويليام) سؤالاً هذه المرة ، وإنما انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحاول البحث عن جواب ، فأضاف (ماليكوف) فى صرامة :

ـ وأحد رجالى يحصل على تلك الإجابة الآن .

وانعقد حاجبا سير (ويليام) أكثر ..

ولم ينطق أيضًا ..

فما سمعه من الجنرال الروسى ، كان يتمشَّى مع مخاوفه .. تمامًا ..

* * *

بدا طيار الطائرة الخاصة شديد التوتر ، وهو يختلس النظر إلــى مساعده الجديد ، الذى تم استبداله بالقديم ، فى اللحظة الأخـيرة ، وقال فى حذر ، لم يخل من لمسة عصبية واضحة :

ـ ماذا أصاب (لبيسكى) ؟!

أجابه الماجور (بولانسكى) ، الذى ينتحل صفة طيار مساعد ، فى هدوء واثق :

ـ يقولون : إنها وعكة صحية مفاجئة ، نشأت عن طعام فاسد ، أو شىء من هذا القبيل .

سأله الطيار فى توتر :

ـ ألا تعرفه بصفة شخصية ؟!

هزَّ (بولانسكى) كتفيه ، متظاهرًا باللامبالاة ، وهو يقول :

ـ لم ألتق به قط .

اندفع الطيَّار قائلاً ، فى مزيج من الشك والتوتر :

ـ حقـًا ؟!

التفت إليه (بولانسكى) فى بطء ، ورمقه بنظرة نارية ، استغرقت لحظة واحدة ، قبل أن يخفيها فى سرعة ، خلف قناع من البراءة ، وهو يجيب فى لهجة هادئة ، نتجت عن سنوات من التدريب :

ـ حقًا .

انعقد حاجبا الطيار ، وكأنما لم يقنعه هذا ، إلا أنه لم يعترض بحرف واحد .. حتــى وصــل (راءول) ، وهــو يحمــل حقيبــة صغيرة ، وما إن دلف إلى الطائرة ، حتى ألقى نظرة على الطيـار ومساعده ، ثم ابتسم ابتسامة بسيطة ، وهو يقول :

ـ كيف حالكما ؟

تمتم كلاهمـا بكلمـات غير مفهومـة ، فحـافظ على ابتسـامته ، وهو يتجه إلى مقعده ، ويربط حزامه ، قائلاً :

ـ هل ننطلق الآن ؟

سأله الطيار فى توتر :

ـ إلى أين ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، واتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

ـ (سيبيريا) .

انعقد حاجبا (بولانسكى) في شدة، فى حين قال الطيار فى آلية، توحى بأن الأوامر التى تلقاها تحتم عليه أن ينطلق براكبه إلى أية وجهة ينشدها هذا الأخير:

- فليكن .

بدأ يتحرك بالطائرة بالفعل، و(بولانسكى) يطلق لعقله العِنان، وهو يحاول فهم ما يحدث ..

سيبيريا منطقة شبه قاحلة، فى أعلى شمال (روسيا)، وكانت فى الماضى، مع طقسها شديد البرودة، وثلوجها الكثيفة، وتضاريسها العسيرة، مكانًا مثاليًا لأخطر معتقل، لكل المعارضين والمنشقين عن النظام الشيوعى السابق، للاتحاد السوفيتى المنهار ..

وفى (سيبيريا) كلها، لا يوجد سوى مطار واحد .. مطار كان، فيما سبق، يقتصر على الطائرات العسكرية، التى كانت تنقل المغضوب عليهم، من وإلى معتقل (سيبيريا) ..

وأهم ما فى الأمر الآن، هو أن يبلغ رئيسه، الجنرال (ماليكوف)، بوجهة الطائرة، حتى يتخذ كل الاستعدادات اللازمة، لمواصلة المهمة ..

كان يدير الأمر فى رأسه، والطائرة تقلع، وتتخذ مسارها نحو (سيبيريا)، وعندما استقرَّت فى الهواء، امتدَّت يده فى خفة، إلى جهاز صغير فى جيبه، وضغط زرًّا رفيعًا فى جانبه، عدة ضغطات سريعة منتظمة، تفصل بينها مسافات توقُّف قصيرة مدروسة، بحيث يرسل الجهاز كلمة واحدة ..

(سيبيريا) ..

ولقد تم استقبال الكلمة بالفعل ..

استقبلها (ماليكوف)، عبر جهاز اتصال خاص فى مكتبه ..

واستقبلها شخص آخر أيضًا ..

آخر شخص يمكن توقُّعه ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

أشعل سير (ويليام) سيجارًا فاخرًا، دسَّه بين شفتيه مطفأً، منذ أكثر من ساعة، وهو يقف شاردًا، أمام خريطة كبيرة للعالم، تحتل نصف جدار حجرته الخاصة، فى ذلك المنزل الآمن، فى قلب (باريس) ..

وبينما ينفث دخان سيجاره، راح عقله يدرس الموقف كله، على ضوء شكوكه، والمعلومات الجديدة التى وردته من (موسكو) ..

من يصدق هذا ؟!!..

إنه يتعاون الآن مع الروس ، ويتبادل معهم المعلومات !

منذ سنوات قليلة مضت ، كان السوفيت أعدى الأعداء ، وكان الصراع بينهم وبين مخابراته شرسًا ..

عنيفًا ..

وحشيًا ..

ومستمرًا ..

وفى سنوات عمله الأولى ، فى المخابرات البريطانية ، كان هدفه الأوّل هو المخابرات السوفيتية ..

وكم واجهها !

وقاتلها !

وانتصر عليها !

وانهزم منها !

ولكنها السياسة !...

تلك السياسة اللعينة ، التى تحتم أن يكون عدو الأمس هو صديق اليوم ، وحليف الأمس هو أعدى أعداء اليوم .. وكل يوم ..

ثم إن المتغيرات ، فى هذا الزمن ، تتم بسرعة الصاروخ ، ولا تمنح المرء فرصة ، حتى لِلُهاث ، لو أنه ينشد التفوّق ..

لم يعد العالم مكانًا للمتراخين ، أو المتعنتين ، أو الحمقى ..

أو حتى غير العقلاء ..

وهذا ما جعله يتعاون مع الروس ..

وما يجعله مستعدًا للتعاون ، مع الشيطان نفسه ، لو اقتضى الأمر ..

المهم أن تظل (بريطانيا) داخل السباق ..

سباق القوة ..

والتفوّق ..

والنفوذ ..

مع أنفاس سيجاره التالية ، وجد عقله يقفز ، دون وعى منه ، إلى ذلك الغموض الإسرائيلى المثير ..

ترى .. ما الذى يسعى إليه الإسرائيليون بالضبط ؟!

منذ حداثته ، يدرك تمامًا أنهم يختلفون عن كل الفئات الأخرى ..

فى شريعتهم ، لا توجد سوى قاعدة واحدة ..

مصلحة إسرائيل ..

واليهود ..

وفى سبيل تفوقهم ، لديهم استعداد تام لفعل أى شىء ..

وكل شىء ..

يتحالفون مع كل الأطراف ..

ويخدعون كل الأطراف ..

ويخونون كل الأطراف ..

ويتجسسون على كل الأطراف أيضًا ..

وهو واثق تمام الثقة ، منذ وافق رؤساؤه على ذلك التحالف ، أن الإسرائيليين وراء هذا ..

وأنهم قد خططوا ..

ودبَّـروا ..

ولعبــوا ..

واحتالوا ..

المهم أن يربحوا فى النهاية ..

وأن يقنعوا الجميع بالتحالف معهم ..

ومؤازرتهم ..

وتحقيق أغراضهم ..

وأغراضهم وحدها ..

وهذا ما يؤمن به تمامًا ..

منذ اللحظة الأولى ، يؤمن بأن هدفهم الحقيقى ، ليس أبدًا ما يصرحون به ..

هناك حتمًا هدف آخر ..

هدف خفى ..

وهذا ما حاول أن يقنع به رؤساءه ..

ولكنه فشل تمامًا ..

الإسرائيليون لعبوا لعبتهم فى مهارة حتمًا ، وسيطروا على العقول ..

كل العقول ..

ولاشك فى أنهم خططوا للأمر ـ كعادتهم ـ لفترة طويلة للغاية ..

ودرسوا كل النقاط ..

وكل الاحتمالات ..

ووضعوا خطتهم ..

وهدفهم المعلن ..

والخفىّ ..

ثم بدءوا برنامج تجنيد كل الأطراف ؛ لتحقيق الهدفين ..

وها هم أولاء قد نجحوا فى إقناع الجميع بالعمل لحسابهم ، وهم يتصورون أنهم يتعاونون لتحقيق هدف ينشده الجميع ..

ويا له من هدف !..

القضاء على رجل واحد ..

على (أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

نفث دخان سيجاره مرة أخرى .. بدت عصبيته هذه المرة ، وهو يقاوم ذلك الشعور العنيف ، الذى يسيطر على كل أفكاره ..

الشعور بأن تحالف أربعة أجهزة مخابرات ، وأقوى منظمة إجرامية فى العالم ، لن ينجح فى القضاء على ذلك المصرى !!..

والواقع أنه لا يدرى لماذا سيطر عليه هذا الشعور ، على الرغم من أن كل ما حوله يوحى بالعكس تمامًا ..

إنه لم يلتق بـ (أدهم صبرى) شخصيًّا أبدًا ، ولم يواجهه مواجهة مباشرة قط .. وعلى الرغم من هذا فذلك الشعور يملأ نفسه ..

ويسيطر عليه بشدة ..

ولكنه رجل مخابرات محترف ..

وواجبه يحتم عليه أن يقاوم هذا الشعور ..

وبشدة ..

وعلى نحو عملى مباشر ..

عندما بلغ تفكيره هذا الحد ، انعقد حاجباه فى شدة ، وأطفأ سيجاره فى المنفَضة أمامه ، وهو ينفث آخر أنفاس دخانه ، هاتفًا :

ـ (جون) .

أسرع رجل المخابرات الشاب إليه ، فوضع بقايا السيجار فى جيبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة ، لم يعتدها منه رجاله :

ـ ما آخر التطورات ؟

أجابه (جون) فى سرعة وثقة :

ـ ما زال مستغرقًا فى النوم .

قال (ويليام) بنفس الصرامة :

ـ من أدراك ؟

شدّ (ويليام) قامته ، وهو يجيب :

ـ صوته .

انعقد حاجبا (ويليام) فى شدة ، وهو يقول فى حدة :

ـ صوته ؟! هل تتنصّتون عليه ؟!.. ألا تنصّ الخطة الأساسية على عدم دس أية أجهزة تنصُّت أو مراقبة فى حجرته ؛ حتى لا يكشف أمرها ، فيفسد كل شىء .

على الرغم من غضبه ، أجابه (جون) فى هدوء :

ـ لم يتم زرع أية أجهزة فى حجرته يا سير (ويليام) ، ولكن أحد رجالنا استأجر الحجرة المجاورة له ، وألصق أجهزة استماع شديدة الحساسية ، بالجدار المشترك بين الحجرتين .

كان هذا كفيلاً بإجابة سير (ويليام) ، وتهدئة انفعاله ، إلا أنه ، وعلى عكس طبيعته ، ظل عصبيًا ، على نحو انعكس على صوته وهو يقول :

ـ صوت أنفاسه وحده لايكفى .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بكل الصرامة :

ـ أريد تأكيدًا بصريًا .

بدت الدهشة على وجه (جون) ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا قد يعرّض الخطة لـ ...

قاطعه بمنتهى الصرامة :

ـ جِدْ وسيلة .

كان هذا أشبه بأمر مباشر ، جعل (جون) يبتلع دهشته ، ويشد قامته على نحو عسكرى ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا سيّدى .

انصرف على الفور لتنفيذ الأمر ، تاركًا سير (ويليام) خلفه ، وذلك الشعور العارم يشتعل فى أعماقه ، وينمو أكثر وأكثر ..

شعور الشك ..

والقلق ..

والخوف ..

بلا سبب واضح ..

وبلا حدود ..

* * *

بكل الدقة ، التى اعتادها ، وتدرَّب عليها طويلاً ، راح ماجور (بولانسكى) يتابع ويدرس مسار الطائرة الخاصة ، التى حلَّقت فوق الأراضى الروسية ، فى طريقها إلى (سيبيريا) ، وهو يطرح على نفسه سؤالاً مهمًّا :

ما الذى يسعى إليه (راعول) بالضبط ؟!..

بل ، ما الذى يعسى إليه الإسرائيليون ؟!..

وماذا يوجد هناك ..

فى قلب (سيبيريا) ؟!..

كانت كل هذه الأسئلة تدور فى رأسه ، عندما قال (راعول) فجأة ، فى صرامة آمرة :

ـ عشرين درجة إلى اليمين .

انعقد حاجبا (بولانسكى) فى دهشة ؛ لهذا المطلب المفاجئ ، فى حين قال الطيار فى توتر :

ـ هذا يخرجنا عن المسار ، و ...

قاطعه (راعول) فى صرامة أكثر ، مكررًا :

ـ عشرين درجة إلى اليمين .

همهم الطيار بكلمات غاضبة غير مفهومة ، ولكنه أطاع الأمر ، ومال بالطائرة ، بنفس الزاوية التى أرادها (راعول) ، فى حين قال (بولانسكى) فى حذر :

ـ هذا سيقودنا إلى منطقة ثلوج قاحلة ، و ...

قاطعه (راعول) بمنتهى الصرامة :

ـ لا تقلق نفسك بهذا .

أطبق (بولانسكى) شفتيه فى توتر ، ولاذ بصمت عصبى ، استمر طوال الوقت ، والطائرة تحلّق فوق جليد ، بدا وكأنه بلا نهاية ، و (راعول) يتابع المسار ، عبر النافذة المجاورة له ، فى اهتمام بالغ ، فى حين شعر الطيار أنه يقلُّ شخصًا مجنونًا ، يرغب فى التحليق فوق الثلوج بلا هدف ، و ...

وفجأة ، اتسعت عيناه فى دهشة بالغة ، وغمغم فى عصبية زائدة :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

لم يكن (بولانسكى) بأقل منه دهشة ، وهو يحدِّق فيما بدا أشبه بمطار خاص وسط الثلوج ، بأرضه الممهَّدة ، والأضواء على جانبى الممر ، وبرج المراقبة الصغير فى الجانب ، وسيارات الإسعاف والإطفاء ، التى تنتظر متحفزة للطوارئ !!

وقبل أن تبلغ دهشتهما ذروتها ، قال (راعول) في هدوء ، لم يخل من الصرامة :

ـ سنهبط هنا .

شعر (بولانسكي) بتوتر بالغ ، وهو يبدأ مع الطيار إجراءات الهبوط ، ويتجهان بالطائرة إلى ذلك الممر الممهَّد ، وسط ثلوج (سيبيريا) ، ولم يخفت توتره ، حتى استقرَّت عجلات الطائرة على ممر الهبوط ، وراحت تنطلق فوقه لثوان ، قبل أن تتوقَّف ، ويقول الطيار في عصبية :

ـ أهذا المطار الخاص قانوني ؟!

ابتسم (راعول) ابتسامة خبيثة ، دون أن يجيب ، وحمل حقيبته الصغيرة ، ونهض من مقعده ، قائلاً في لهجة آمرة :

ـ انتظراني حتى أعود .

غمغم الطيار ، بنفس عصبيته :

ـ سنفعل .

ثم استدرك ، بعد لمحة من الصمت :

ـ فليس أمامنا سوى هذا .

تابعه (بولانسكي) ببصره ، وهو يهبط من الطائرة مرتديًا معطفًا سميكًا من الفراء ، ثم يتَّجه نحو سيارة رباعية الدفع ، تنتظر بالقرب من الطائرة ، فصافح راكبها الوحيد ، ووقف يتبادل معه حديثًا ، جعل (بولانسكي) يقول في اهتمام شديد التوتر :

ـ هل يحلو لهما الحديث في هذا الطقس ؟!

غمغم الطيار :

ـ يبدو أنهما ينتظران شيئًا ما .

سأله (بولانسكي) :

ـ شيئًا مثل ماذا ؟!

أشار الطيار إلى أعلى ، مجيبًا :

ـ شيئًا مثل هذا ..

في هذه اللحظة فقط ، تناهى إلى سمع (بولانسكي) أزيز مروحة هليوكوبتر ، تقترب من المكان ، فأدار عينيه يتابعها ببصره ، عبر نافذة الطائرة الأمامية ، حتى هبطت إلى جوار السيارة ، فاتجه إليها (راعول) وحده ، وما إن استقلَّها حتى حلَّقت به ، وابتعدت في الأفق ، ليتفجَّر السؤال مرة ثانية ، في أعمق أعماق (بولانسكي) :

ما الذي يسعى إليه الإسرائيليون ؟!..

وماذا يخططون بالضبط ؟!..

مـاذا ؟!..

* * *

من أمتع المَشاهد ، التى يملأ المرء بها عينيه ، مشهد شروق الشمس على العاصمة الفرنسية ..

إنه فيضان من الألوان والظلال ، فى لوحة من إبداع الخالق (عزَّ وجلّ) .. امتزج فيها لون السماء الزرقاء بالسحب التى تحمل درجات الأبيض والرمادى ، بأشعة الشمس الذهبية ، وانعكاسها على الأرض اللامعة ، التى غمرها الندى فى شوارع (باريس) ..

وعلى الرغم من روعة المشهد وجماله ، لم يبد أن سير (ويليام) قد شعر بأدنى تأثُّر تجاهه ، وهو يدخِّن ما تبقَّى من سيجاره ، وذهنه منشغل تمامًا بما سيسفر عنه ذلك التأكيد البصرى ، الذى طلبه من رَجُله (جون) ..

لسبب ما ، لم يكن مقتنعًا بأنه من الممكن خداع (أدهم صبرى) ، على هذا النحو التام ، مهما بلغت دقة وتعقيدات نظم المتابعة والمراقبة ..

فملف هذا المصرى ، يجعلك تتصوَّر أنه لا يبصر عبر عينيه فحسب ..

وإنما يبصر بكل حواس جسده ..

كل رجل مخابرات فى العالم ، مدرَّب على كشف المراقبة ، مهما بلغ حرصها ..

ولكن (أدهم) هذا يختلف ..

صحيح أنه قد تلقَّى تدريبات طويلة مدهشة ، لا يدرى أحد متى بدأت ، ولا كيف كانت ، إلا أن مصدر قوته ليس هذا فحسب ..

إنها موهبته أيضًا ..

فالخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ منح (أدهم) موهبة خاصة ، جعلته قادرًا على أن يطلق العنان لكل حواسه ، فى تضافر عجيب ، لم يشهد العالم مثيلاً له من قبل ..

تضافر يجعله يرى بعينيه ، وأطرافه ، وأذنيه ، وأنفه ..

بكل خلية من خلاياه ..

ومثل هذا الرجل ، يستحيل ألا ينتبه لمراقبيه !..

ومن المستحيل أكثر أن يتم خداعه !..

إنه سيكشف الأمر حتمًا ..

سيكشفه مهما فعلوا ..

تضاعفت عصبيته ، التى تبدَّت فى الطريقة التى ينفث بها دخان سيجاره ، الذى كاد ينتهى ، وهو يطرح على نفسه أسئلة مقلقة أكثر :

ماذا لو كشف (أدهم) المراقبة ؟!

ماذا لو أدرك ما يدور حوله ؟!..

كيف سيكون رد فعله حينئذ ؟!..

كيف ؟!..

كيف ؟!..

حاول أن يستنتج ما يمكن حدوثه ، ولكن عقله تجمَّد عند هذه النقطة ، وبدا كما لو أنه لا توجد أية احتمالات ..

سوى احتمال واحد ..

أن يبدأ القتال فورًا ، على أرض (باريس) ..

وأن تشتعل الأمور دفعة واحدة ..

وتبدأ الحرب ..

فـورًا ..

كان منهمكًا فى هذه الفكرة ، عندما اندفع (جون) داخل حجرتـه فجأة ، وهو يقول فى ارتياع واضح ، امتزج بلُهاث انفعاله :

ـ ليس هناك .

استدار إليه (ويليام) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

لوَّح (جون) بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ لقد أجرينا التأكيد البصرى ففوجئنا بأنه ليس نائمًا فى حجرتـه كما كنا نتصوَّر .. لقد وضع فيها (بزى بوى) فحسب .

وانعقد حاجبا سير (ويليام) فى شدة ..

فجهاز (بزى بوى) هذا عبارة عن جهاز صغير ، يصدر أصواتًا تشبه صوت النائم ، ويستخدم فى خداع المراقبين ..

وما دام (أدهم صبرى) قد استخدمه فى حجرته الخالية ، التى غادرها سرًّا ، بوسيلة ما ، لم يكشفها رجاله ، فهذا يعنى أنـه قد كشف ما يحدث حوله ..

وهذا يقلب خطتَهم كلها ..

يقلبها رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

6ـ إجــراءات..

« نستعد للهبوط فى مطار جى إف كيه (نيويورك) .. درجة الحرارة ثلاث درجات مئوية ، سبعة وثلاثون وسبعة من عشرة فهرنهايتية(*) .. برجاء ربط الأحزمة ، والامتناع عن التدخين .. »

فتح (أدهم) عينيه فى بطء ، مع تردُّد النداء داخل الطائرة الفرنسية ، التى استقلها فى منتصف الليلة السابقة ، منتحلاً شخصية الطاهى الإيطالى (ألبرتو بينالى) ..

خطة التحالف المخابراتى التنظيمى لمراقبته ، كانت شديدة الدقة والبراعة بالفعل .. ورجالهم كانوا على درجة عالية من الكفاءة ..

ولكنه أيضًا محترف ..

وليس أى محترف ..

لقد رصد كل ما فعلوه ، دون أن يبدى هذا ، ولو لحظة واحدة ..

عيناه المدربتان رصدتا أولئك الرجال ، الذين ينهمكون فى مطالعة نفس الكتاب ..

فى المطار ..

والطريق ..

والفندق ..

(*) الصفر المئوى يساوى اثنتين وثلاثين درجة فهرنهايتية .

وحتى فى شركة الطيران ..

وكلهم كانوا يوجّهون كتابهم نحوه ، ويتابعون حركته ، وإن تظاهروا بالعكس ..

ولقد لاحظ ..

ورصد ..

وتجاهل ..

وفى ذكاء ، وبراعة منقطعة النظير ، راح يتحرك ويتصرف بتلقائية ، وعيناه ترصدان كل التغيرات ، حتى وصل إلى شركة الطيران ، ولاحظ اضطراب موظفة الشركة ، وحركة عينيها ، وهى تطالع الكمبيوتر ، وأحصى الوقت الذى استغرقته ، فى تظاهرها بتسجيل بياناته .. وأدرك ما يدور حوله ..

أو مضمونه الأساسى على الأقل ..

إنه مراقب ..

مراقب ، منذ وضع قدميه على أرض (باريس) ..

ومراقبوه يستخدمون تكنولوجيا جديدة ، من الواضح أنها تكشف تنكره ، على نحو ما ..

وهم يتتبعون كل خطواته ..

وبمنتهى الدقة ..

السؤال الوحيد ، الذى لم يجد ذهنه له جوابًا ، هو لماذا ؟..

لماذا اكتفوا بتتبُّعه ومراقبته ، ولم يحاولوا قط مواجهته ؟!..

بل ولم يسعَوْا إلى إيذائه ، على أى نحو كان ؟!!..

كانِ حائرًا فى البحث عن الجواب ، إلا أنه لم يتوقَّف عند هذا طويلاً ..

فالمهم هو أن يتجاوز الموقف ..

وألا يبدأ صراعًا فى (باريس) ، مهما كانت الأسباب ..

لذا ؛ فلقد وضع خطته الجديدة ..

عاد إلى الفندق فى هدوء ، فى شخصية تاجر السيارات السويدى (هانز فاولر) ، ثم فحص كل شبر من حجرتـه ، وتيقَّن من أنـه لاتوجد أية وسائل تنصُت أو مراقبة ، ثم بدأ يقوم بعمله ، فى منتهى السرعة والدقة والنشاط ..

كـان (قدرى) ، بأصابعه الذهبيـة ، قد زوَّده بعدد من جـوازات السفر ، شديدة الإتقان ، وكل منها يحمل اسمًا مختلفًـا ، وجنسية مختلفة ، ومهنة مغايرةً ، وصورة لـ (أدهـم) ، لاتشبهه هيئتهـا على الإطلاق ..

ومن بين تلك الجوازات ، التى تحمل كلها تأشيرة دخول لدولـة (فرنسا) ، لايمكن كشف زيفها ، انتقى (أدهم) جوازًا إيطاليًا ، يحمـل اسم (ألبرتو بينالى) ، ومهنته طاهٍ ، فى أحد أكبر فنادق (روما) ..

وفـى تمـام العاشرة ، أدار جهـاز (بيزى بوى) ، ووضعـه علـى فراشه ، ثم دخل حمام الحجرة ، فى هيئة (ألبرتو) ، وتسلَّق إلـى فتحة التهوية ، وزحف عبر ممرها ، حتى بلـغ حجرة المفروشات ، وخرج منها إلى ممر الفندق ، ثم إلى القبو ، حيث مرآب السيارات ، الذى تسلَّل منه إلى الخارج ..

ووفقًا لتعليماتـه ، كـان أحد موظفى السفارة المصريـة فـى (باريس) ، قد قام بحجز تذكرة فى الدرجة السياحية ، فى طـائرة منتصف الليل ، للسفر إلى (نيويورك) ، وترك التذكرة فى نقطـة ميتة(*) ، خلف مرآة أحد المطاعم ..

وفـى العاشرة والربع ، التقط (أدهم) التذكرة من النقطة الميتة ، وقبل أن تدق تمام العاشرة والنصف ، كان داخل المطار ، الذى لـم يوضع تحت المراقبة ؛ لافتراض أنه ما زال نائمًا فى حجرته ..

كما توقَّع تمامًا ..

(★) النقطة الميتة : مكان علم ، يتم اختياره ؛ لوضع رسالة ما ، بواسطة عميل ، بحيث يلتقطها عميل آخر فيما بعد ، على أن يكون مكان ترك الرسالة خافيًا عن الأعين .

وفى تمام منتصف الليل ، أقلعت به الطائرة الفرنسية ..

إلى (نيويورك) مباشرة ..

وبينما تستعد الطائرة للهبـوط ، فـى مطـار (نيويـورك) ، كـان عقل (أدهم) يدرس الخطوة التالية ..

المفترض أن يكونوا قد كشفوا أمره الآن ..

وهذا يعنى أنه سيكون هناك عملاء لهم هناك فى انتظاره ..

فى مطار (نيويورك) ..

وسيحملون حتمًا ذلك الكتاب ، الذى لم يـدرك ماهيتـه وقدراتـه بعد ..

الكتاب الذى يمكنه كشف تنكُّره ..

وهذا يعنى أنه سيفقد أهم مهاراته ..

وخصومه سيحصلون على نقطة تفوّق كبيرة ..

ولكنه مضطر لمواجهتهم ..

أيًا كان الثمن ..

وأيًا كانت النتائج .

وبينمـا لامست إطـارات الطـائرة الفرنسية ممر الهبوط ، كـان عقله يشتعل بالبحث عن سبيل لعبور تلك العقبة الكئود ..

ولكن كيف ؟!..

كيف ؟..

★ ★ ★

« بالقـوة » ..

نطق سير (ويليـام) الكلمـة ، بكل مـا يعتمل فـى نفسـه مـن غضب وثورة ، فأشار (جون) بيده فى حذر ، وهو يقول :

ـ ولكن الخطة الأصلية ، تمنعنا من استخدام القوة معـه ، أيًا كانت الأسباب .

قال سير (ويليام) فى حدة ، لم يعتدها أحد منه :

ـ لذا ؛ فقد تركتموه يفلت .

التقط (جون) نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابـه ، قبل أن يقول ، محاولاً بث أكبر قدر ممكن من الهدوء فى كلماته :

ـ إننا لم نسمح له بشىء يا سير (ويليام) .. هو انتزع كل ما فعله انتزاعًا ، دون أن يسمح لنا ، حتى بمعرفة ما ينتويه .. أنـت تعلم أننا أحكمنا الحصار عليـه جيدًا ، وعلى الرغم من أن الخطـة الأساسية تحتم ألا نضع أية أجهزة تنصُّت ومراقبـة فى حجرته ، إلا أننا وضعنا تلك الأجهزة فى ممر الفنـدق ؛ لترصد باب حجرته

طوال الوقت ، وراقبنا نافذة الحجرة الوحيدة طوال الوقت ، وتنصتنا على جدار حجرته ، وكنا نتصور طوال الوقت ، أنه نائم فى سبات عميق .

قال (ويليام) فى غضب :

ـ من الواضح أنكم أنتم من كان فى سبات عميق ، وإلا لَمَا أفلت منكم ، من تحت سمعكم وأبصاركم .

انعقد حاجبا (جون) ، وهو يقول فى حزم :

ـ ما زلت أصر على أننا لم نقصر فى عملنا .

قال (ويليام) فى سخط :

ـ كيف غادر حجرته إذن ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ من فتحة التهوية .

كان الجواب منطقيًا بسيطًا ، حتى إن سير (ويليام) شعر بمزيد من الغضب والسخط ، وهو يغمغم :

ـ هذا خطأ كبير .

انتقل غضبه إلى (جون) ، ولكنه لم يَبْدُ فى صوته ، وهو يقول :

ـ من المستحيل مراقبة كل فتحات وممرات التهوية فى الفندق بأكمله ، دون أن ينكشف أمرنا .

همهم سير (ويليام) بكلمات غير مفهومة ، فتابع (جون) فى حزم :

ـ ثم إننا عِلمنا أين ذهب ، وأظن هذا هو المهم .

جذبت العبارة انتباه واهتمام سير (ويليام) فى شدة ، وسأل :

ـ وأين ذهب ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ استقل طائرة منتصف ليل أمس ، إلى (نيويورك) .

انعقد حاجبا سير (ويليام) فى شدة ، وهو يكرر :

ـ منتصف ليل أمس .

ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته ، قبل أن يقول ، وقد انكشفت عصبيته ، لأوّل مرة فى حياته :

ـ هذا يعنى أن طائرته قد هبطت فى (نيويورك) الآن !

أجابه (جون) ، بنفس السرعة :

ـ لقد أجريت اتصالاتى ، وطائرته هبطت بالفعل ، ولكن رجال التحالف فى انتظاره هناك .

تطلَّع إليه سير (ويليام) لحظة ، قبل أن يقول فى حَنَق :

ـ ولكنه يعلم .

قال (جون) فى صرامة :

ـ لن يصنع هذا فارقًا .. سيتم حصاره ، و ...

قاطعه سير (ويليام) فى حدة :

ـ خطـأ !

أطبق (جون) شفتيه ، وتطلَّع إليه فى توتر ، فتابع بنفس الحدة :

ـ الوسيلة الوحيدة لمباغتته ، هى أن يجهل ما ينتظره ، أما حينما يتوقَّع هذا ...

لم يحاول إكمال عبارته ، التى بدت له شديدة الوضوح ، إلى حد لا يحتاج إلى استكمال ، إلا أن (جون) قال فى ضيق :

ـ حتى ولو كان أمن الولايات المتحدة الأمريكية كله فى انتظاره هناك ؟!

تطلَّع إليه سير (ويليام) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يُشيح بوجهه عنه ، مغمغمًا فى توتر :

ـ سنرى !

وكانت عبارته بالغة الدقة ، إلى حد لم يتصوَّره هو نفسه ..

فلا أحد يعرف كيف سيواجه (أدهم) هذا المأزق ..

ولكننا ... سنرى ..

★ ★ ★

على الرغم من الجهد الرهيب الذى بذله الماجور (بولانسكى) ؛ ليظل مستيقظًا حتى يعود (راعول) ، إلا أنه لم يكد النهار ينتصف ، بتوقيت (سيبيريا) ، حتى بدأ جفناه يتساقطان ، وبات من العسير عليه أن يُبقيهما منفرجَيْن ، خاصة وأن الطيار الأساسى قد استغرق فى نوم عميق على مقعده ، إلى جواره مباشرة ، وصوت شخيره يدفعه إلى النُّعاس بشدة ..

كان يريد أن يعرف متى يعود (راعول) ..

فلهذا أهمية بالغة ..

فالوقت الذى يستغرقه فى الذهاب والإياب ، قد يكون الوسيلة الوحيدة لتحديد المدى الذى توغَّل فيه ، فى قلب ثلوج (سيبيريا) ..

وهذا قد يقود إلى كشف السر ..

سر ما يفعله الإسرائيليون هنا ..

فى قلب دولته ..

كان يرغب بشدة ، بحكم عمله ، وبحكم وطنيته أيضًا ، فى كشف ذلك السر ، إلا أن الجزء الآدمى منه لم يستطع المقاومة ، وسرعان ما استغرق فى نوم عميق ، وهو يركن رأسه إلى زجاج النافذة الجانبية لكابينة القيادة ، و ....

« استيقِظ .. »

لم يَدْرِ كم بقى غارقًا فى النوم ، إلا أن جسده كله انتفض فى عنف ، عندما لامست يد صارمة كتفه ، واخترقت الكلمة أذنيه ، فهبَّ جالسًا ، وهو يقول فى توتر :

ـ أنا مستيقظ .

رمقه (راعول) بنظرة صارمة ، ثم تراجع إلى مقعده ، وهو يقول :

ـ أيقِظ الطيار ، ودعانا نَعُد إلى (لينتجراد) .

شعر بتوتر شديد ، وهو ينفذ أوامره ، وأيقظ الطيار الأساسى ، وهو يلقى نظرة على ساعة الطائرة ..

لقد غاب (راعول) أكثر من ثمانى ساعات ، وهذا يكفيه للسفر إلى الولايات المتحدة نفسها ، لو اتجه شرقًا ...

ولو أراد هذا ..

كان يشعر بالحنق ؛ لأن مهمته قد فشلت ، من وجهة نظره ، ولم ينجح فى كشف ما يسعى إليه (راعول) ..

ولكنه حدَّد موقع ذلك المطار الخاص على الأقل ..

وهذا يُعدّ خطوة أولى ..

الأقمار الصناعية يمكنها تحديد الأمور أكثر فيما بعد ..

حتى لو أخفوا ذلك المطار ..

ولو كانت السماء ملبَّدة بالغيوم ..

كان ينطلق بكل توتره ، عائدًا إلى (لينتجراد) ، وعقله مصرّ على أن يفكِّر فى هذا الأمر طوال الوقت ، حتى انطلق رنين هاتف (راعول) المحمول فجأة ، فجذب حواسه كلها إليه ، وجعله يرهف سمعه فى شدة ؛ لعله يلتقط جزءًا من حديث الإسرائيلى ، فيكشف بهذا جزءًا من اللغز ..

لذا ؛ فقد أدهشه أن تحدث (راعول) بصوت عادى ، دون أن يحاول إخفاء ما يقول ، وهو يتحدث بلهجة حازمة :

ـ أنا (راعول) .. ما الجديد ؟

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثه فى اهتمام ، ثم عادت ملامحه تلين ، وهو يسترخى فى مقعده ، قائلاً :

ـ لا بأس .. كان هذا متوقعًا .

صمت لحظات أخرى ؛ ليستمع فى اهتمام ، ثم واصل :

ـ كلاً .. لا تلجئوا إلى هذا .. يكفيكم إفسادًا للخطة .. لا .. لا .. لا تُقْدِموا على هذه الحماقة أبدًا .. خطأ .. هذا يفسد الخطة أكثر ..

ثم اعتدل فى مقعده ، مستطردًا فى اهتمام شديد :

ـ اسمعنى جيِّدًا .. ما ستقدمون عليه ينبغى أن يختلف ..

وتألقت عيناه ، وهو يضيف :

ـ يختلف كثيرًا .

حمل وجهه ابتسامة خبيثة ، وعيناه تتألقان أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

فكرة عجيبة ، قفزت إلى ذهن (أدهم) ، وهو يغادر الطائرة إلى صالة الجمارك والجوازات ، فى مطار جى. إف. كيه ، فى (نيويورك) ..

إنه ما زال يجهل ما يدور حوله ..

فهناك من يراقبونه ..

ويتتبعونه ..

ويحاصرونه ..

ولكنهم أبدًا لا يهاجمونه ..

وهذا مثير للدهشة ..

والحيرة ..

والغموض ..

هناك أمر ما ، لا يستطيع فهمه ..

ولكنه يحتاج إلى تأكيده ..

فهذا سيصنع فارقًا كبيرًا ..

كبيرًا جدًّا ..

على الأقل ، سيكون لَبِنة أولى ، فى سبيل كشف ما يحيط به من غموض ..

وتحديد خطة المقاومة ..

والقتال ..

استقرَّت الفكرة فى وجدانه ، وغاصت فى أعمق أعماق خلايا مخه ، ودفعته إلى اتخاذ قرار خطير ..

خطير للغاية !!..

إنه لن يحاول الفرار ..

لن يحاول حتى التخفِّى ..

وفقًا لخبراته الطويلة ، فلا ريب فى أنهم قد كشفوا لعبته ، منذ ساعة كاملة على الأقل ..

وأنهم قد علموا إلى أين يتجه ..

ووفقًا لكل القواعد المعروفة ، سيكون هناك بعضهم فى انتظاره حتمًا ، داخل أو خارج المطار ..

السؤال هو : هل سيقوم من ينتظرونه بأى إجراء ، أم إنهم سيكتفون فقط بمراقبته وتتبُّعه ، كما فعل زملاؤهم فى (باريس) ؟!

سار فى هدوء ، مع تلك الفكرة فى رأسه ، حاملاً حقيبته الوحيدة ، وجواز سفره الإيطالى ، حتى بلغ نافذة الجوازات ، فوضع جواز سفره أمام ضابط الجوازات ، وهو يبتسم ، قائلاً بالإيطالية :

ـ مرحبًا .. ألا تتوق لبعض الطعام الإيطالى ، بعد أن تنهى نوبتك هنا ؟

رمقه ضابط الجوازات بنظرة ازدراء ، وألقى نظرة على الاسم والمهنة ، وراجع تأشيرة الدخول فى سرعة ، متسائلاً :

ـ أهى أوَّل مرة تزور فيها الولايات المتحدة الأمريكية ؟

استمع إليه (أدهم) ، وهو يتابع نافذة مجاورة ، يقف أمامها شاب عربى أسمر ، وهم يحيطون به ، ويستجوبونه ، ويفتشون حقيبته ، ويجبرونه على خلع حذائه ، وشعر بالحنق لهذه التفرقة المستفزة ، بين معاملة العرب ومعاملة الأوروبيين ، ولكنه أخفى كل هذا خلف ابتسامة مرحة زائفة ، وهو يجيب ، ملوحًا بيده ، كما تفعل تلك الفئة من الإيطاليين :

ـ وأتعشَّم ألا تكون الأخيرة .

قلب ضابط الجوازات شفتيه ، وكأنما لا يروق له الجواب ، ولكنه سأله فى آلية :

ـ هل تحمل أية مأكولات ، أو بذور ، أو مبلغ يزيد عن عشرة آلاف دولار ؟!

هزَّ (أدهم) رأسه ، ولوَّح بيديه معًا ، وهو يقول :

ـ كلاَّ .. أليس لديكم هنا ؟!

بدا الضجر واضحًا على وجه ضابط الجوازات ، وهو يختم جواز السفر ، ويعيده إليه ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك فى الولايات المتحدة الأمريكية .

استعاد (أدهم) جواز السفر ، وحمل حقيبته الوحيدة ، وهو يختلس النظر إلى رجل يقف هناك ، خارج سور الجوازات ، مطالعًا نسخة من الكتاب نفسه ، ويوجهه نحوه مباشرة ، وهو يهمس بشىء ما ..

التقطت عيناه كل هذا فى لحظة واحدة ، ثم تحرك فى هدوء وبساطة ، مغادرًا صالة الجوازات ، دون أن يعترضه أحد ..

وهذا يعنى أن نظريته صحيحة ..

إنهم يراقبونه ..

ويتابعونه ..

ويرصدونه ..

ويحاصرونه ..

ولسبب ما ، لا يهاجمونه ..

ربما يقودونه إلى شىء ما ..

إلى فخ ، يخدم وجوده فيه مصالحهم ، على نحو أو آخر ..

وهذا يعنى مزيدًا من الغموض ..

الغموض الذى لا يتفق مع طبيعته كرجل مخابرات ..

ففى عالمه ، يعتبر أخطر سلاح يمكن أن تواجه به عدوك ، هو المعلومات ..

المعلومات فقط ..

وهو ، فى هذه المرة ، يفتقر إلى ذلك السلاح الخطير ..

إلى المعلومات ..

إذن فالخطوة الأولى هى أن يحصل عليها ..

وبأى ثمن ..

أى ثمن كان ..

وبسرعة ..

بأقصى سرعة ..

وبينما يتحرَّك داخل ساحة المطار ، متجهًا إلى الخارج ، رصدت عيناه ثلاثة رجال ، يراقبونه بتلك الشىء ، من ثلاث زوايا مختلفة ..

ولكنه واصل طريقه فى هدوء ..

وعندما أصبح قيد خطوة واحدة ، من باب الخروج ، توقَّف فجأة ، وبحث عن شىء ما فى جيوبه ، فى لهفة توحى بأنه قد فقد شيئًا

ثمينًا ، ثم اندفع عائدًا إلى الداخل ، وامتزج بمنطقة شديدة الازدحام ، لركاب ينتظرون قدوم طائرتهم .. ووفقًا للخطة ، تجمَّد اثنان من الرجال الثلاثة في مكانيهما ، في حين اندفع الثالث خلف (أدهم) ، محاولاً كشف أين ذهب ..

ولقد أثار توترَه الشديد ، أنه لم يجده في تلك المنطقة المزدحمة .. ولا حولها ..

وبالتفاتة سريعة ، لم يجد حوله مكانًا يصلح للاختباء ، سوى منطقة دورات المياه ، فاندفع نحوها ، واقتحم منطقة دورات مياه الرجال ، و ...

« لماذ تأخرت ؟!.. »

نطق (أدهم) السؤال ، بلهجته الساخرة الصارمة ، فالتفت إليه الرجل مذعورًا ، وهَمَّ بالتقاط مسدسه ، ولكن أنفه استقبل بغتة لكمة كالقنبلة ، فتحطم ، وتفجَّرت منه الدماء ، وسقط جهاز (ريد آي) من يده ، ولكن (أدهم) التقطه في الهواء في خفة ، وهو يقول ، بنفس السخرية :

- هل تنوي فقد جهازك أيضًا ؟!

حاول الرجل أن يقاوم ..

وأن يحتمل ..

ولكن اللكمة الثانية ، التي تلقَّاها في أسنانه ، أفقدته كل ما يملك من قوة وإرادة ..

ووعى ..

وفي سرعة وخفة ، أمسك (أدهم) عنقه ، وجذبه إلى داخل إحدى الدورات المغلقة ، وهو يقول :

- كلاَّ .. احتفظ بوعيك ، فأمامنا حديث طويل .. طويل للغاية .

وأغلق الباب خلفهما بمنتهى القوة ..

ومنتهى الحزم ..

★ ★ ★

بدا الكولونيل (سميث) شديد الانفعال ، وهو يقول لرئيسه ، في مكتب هذا الأخير :

- إنه هنا .

تألَّقت عينا رئيسه ، وهو يسأله :

- هل أصبح في أرضنا ؟!

أومأ (سميث) برأسه إيجابًا ، وأجاب :

- ودون أن يعترضه أحد .. وفقًا للأوامر .

التقط رئيسه نفسًا عميقًا ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ عظيم .

انعقد حاجبا (سميث) ، وهو يقول :

ـ ولكن لو أننا لم نتبعه ، فقد نفقد أثره تمامًا فيما بعد .

هزّ رئيسه رأسه نفيًا ، وقال فى صرامة :

ـ خطأ ..

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا فى لهجة أقرب إلى الجذَل :

ـ إننا نعرف إلى أين سيتجه بالضبط .

وتألّقت عيناه ، مع استطرادته :

ـ إلى (فرجينيا) .

وانعقد حاجبا (سميث) أكثر ، وهو يسترجع تلك الخطة ، التى وضعها الكمبيوتر ، لأوّل مرة فى تاريخ أجهزة المخابرات ..

الخطة التى تؤكّد أن ساحة الهجوم ستكون هناك ..

فى (فرجينيا) ..

★ ★ ★

« ما الذى تريدونه منى بالضبط ؟!.. »

ألقى (أدهم) سؤاله ، فى صرامة شديدة ، وهو ما زال يقبض على عنق الرجل ، الذى سعَل فى ألم ، فتناثرت قطرات من دمه على الجدار المقابل ، قبل أن يجيب بصوت مختنق ، وبلكنة روسية واضحة :

ـ لا يمكننى أن أخبرك .

بدا من الواضح ، من شدة لكنته ، أنه ليس مهاجرًا روسيًّا ، بل أنه روسى حتى النخاع ، وربما لم يغادر (روسيا) إلا منذ ساعات قليلة ؛ لذا فقد ضغط (أدهم) على عنقه أكثر ، ولوى ذراعه خلف ظهره ، على نحو مؤلم ، وهو يُلصق رأسه بالجدار ، قائلاً بالروسية ، فى لهجة شديدة الصرامة :

ـ ولكننى أظن أنك مضطر إلى هذا .

حمل صوت الرجل كل ألمه ، وهو يجيبه بالروسية :

ـ لا يمكننى أن أخبرك ، حتى لو أردت هذا .

لوى (أدهم) ذراعه أكثر ، حتى كاد يكسره ، فأطلق الرجل صرخة ألم قصيرة ، وهو يضرب الجدار براحته ، هاتفًا :

ـ لأننى لا أعرف .

سأله (أدهم) ، فى صرامة أكثر ، على الرغم من معرفته الجواب :

ـ لا تعرف ماذا ؟!

أطلق الرجل صرخة أخرى ، واحتقن وجهه فى شدة ، مع عنف الألم ، وهو يقول ، فى لهجة أقرب إلى اللُّهاث :

ـ لم يخبرونا .. أنت تعرف نُظُم المخابرات .. المعرفة بقدر الحاجة .. لقد أحضرونا خصيصًا من أجلك .

سأله (أدهم) ، وقد بدأ اهتمامه يتزايد :

ـ هل تعملون لحساب المافيا الروسية هنا ؟!

صرخ الرجل بكل ألمه :

ـ إننا رجال مخابرات .

ضغط (أدهم) ذراعه أكثر وأكثر ، فزاغت عينا الرجل ، ودارتا فى مَحجرَيْهما ، وهو يكمل مقاومًا تلك الغيبوبة ، التى تسيطر عليه أكثر وأكثر ، فى كل لحظة :

ـ لقد أحضرونا ضمن البرنامج المشترك .

سأله (أدهم) ، غير مُبالٍ بآلامه الرهيبة :

ـ أى برنامج مشترك ؟

كان الرجل على وشك فقدان الوعى ، وهو يجيب :

ـ البرنامج المشترك ، مع المخابرات الأمريكية ، والبريطانية ، والإسرائيلية .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يضغط عنق الرجل ، على نحو أوشك معه هذا الأخير على أن يَلفِظ أنفاسه الأخيرة بالفعل ، فهتف ليثبت لـ (أدهم) أنه أدلى بكل ما لديه :

ـ ومنظمة (المافيا) أيضًا .

وازداد انعقاد حاجبَىْ (أدهم) فى شدة .

لقد فعل ما فعل ؛ ليحصل على ما يكفى من معلومات لإزالة الغموض الشديد الذى يحيط به ..

وها هو ذا قد حصل عليها ..

ولكن الغموض لم يقل ، ولو درجة واحدة ..

لقد تضاعف ..

وتضاعف ..

وتضاعف ..

ألف مرة ..

★ ★ ★

7ـ فرجينيـــا ..

على الرغم من بروده وصرامته ، وكل ما اكتسبه من عمله الطويل فى المخابرات السوفيتية ، بدا الكولونيل (ماليكوف) شديد الغضب ، وهو يقول للماجور (بولانسكى) فى حدة :

ـ وكيف فشلت مهمتك ؟!.. المفترض أنك أفضل رجال هذا الجهاز !

شدّ (بولانسكى) قامته ، وهو يقول :

ـ لم يكن بوسعى فعل أى شىء ، أيها الرفيق الجنرال ، دون أن أعرِّض هويتى للكشف .. لقد انتحلت شخصية الطيار المساعد ، وأوصلته إلى مطار سرى عجيب ، فى قلب (سيبيريا) ، ولقد حدَّدت موقعه بمنتهى الدقـة ، وحدَّدت أيضًا الزمن الذى استغرقه فى الذهاب والإياب ، والاتجاه الذى حلَّقت فيه الهليوكوبتر ، وكل هذه دلائل يمكن أن ترشدنا إلى وجهته على الأقل .

زمجر (ماليكوف) ، وقال فى خشونة :

ـ ونكون قد أضعنا وقتًا ثمينًا .

التقى حاجبا (بولانسكى) ، وهو يجيب :

ـ ليس لدينا سوى هذا .

بدا (ماليكوف) شديد الغضب ، وهو يتطلّع إليه ، إلا أنه لم يعترض على قوله هذا ، وإنما نهض من خلف مكتبه ، ووقف يتطلّع عبر نافذة حجرته ، إلى قُبَب مبنى (الكريملين) ، مقر الحكم فى روسيا ، وهو صامت تمامًا ، لأكثر من دقيقة كاملة ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ هل تعلم كم تبلغ مساحة (سيبيريا) ؟!

تمتم (بولانسكى) فى توتر أكثر :

ـ حوالى ثلاثة عشر مليون كيلومتر مربَّع(★) .

التفت إليه (ماليكوف) ، قائلاً فى حدة :

ـ وكم يستغرق فحص كل هذه المساحة فى رأيك ؟!

التقط (بولانسكى) نفسًا عميقًا ، وهو يجيب :

ـ الكثير .

أجابه (ماليكوف) فى غضب :

ـ الكثير فى الوقت ، والجهد ، والمال .. وبينما نفعل هذا ، يكون الإسرائيليون قد أكملوا خطتهم ، وبلغوا هدفهم ، وانتصروا علينا ، و ...

(★) حقيقـة .

صمت لحظة ، مال خلالها نحو (بولانسكى) ، مكملاً :

ـ وعلى أرضنا .

شعر (بولانسكى) بمزيد من التوتر ، مع ثقته فى أن الجنرال يلقى عليه اللوم ، حتى يبرئ نفسه من الفشل ؛ لذا فقد عاد يشد قامته ، وهو يقول فى حزم :

ـ حسنًا أيها الرفيق الجنرال .. ماذا تقترح ؟!

انعقد حاجبا (ماليكوف) فى شدة ، وتراجع بحركة حادة ، وحدّق فى وجه (بولانسكى) فى غضب ، قبل أن يشيح بوجهه ، ويعود إلى مكتبه ، قائلاً فى حدة :

ـ ماذا يمكن أن أقترح فى مثل هذه الظروف ؟!

لم ينطق (بولانسكى) بحرف واحد ، وهو يترقّب المزيد ، فشبك الجنرال (ماليكوف) أصابع كفيه أمام وجهه ، وغرق فى تفكيره بضع لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ سنقوم بمسح كامل لمنطقة (سيبيريا) ، عبر الأقمار الصناعية ، ونطلق طائرات الاستطلاع لفحص كل شبر منها ، على ارتفاع منخفض .

اكتفى بهذا القول ، فانتظر (بولانسكى) لحظات ، ثم تساءل فى حذر :

ـ ثم ؟!

التقى حاجبا (ماليكوف) مرة أخرى ، وهو يجيب فى عصبية :

ـ ثم نرى ما يمكن فعله بعد هذا .

واعتدل (بولانسكى) فى بطء ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة ..

ابتسامة استغرقت جزءًا من الثانية ، قبل أن يستعيد صرامته التقليدية ، وهو يعاود شد قامته ، قائلاً :

ـ كما تأمر أيها الرفيق الجنرال .

والتقى حاجبا (ماليكوف) أكثر ..

فالأمر بالفعل شديد التعقيد ..

شديد التعقيد ، إلى حد مستفز ..

* * *

على الرغم من ثقة الشاب (هشام حسن) ، فى أنه مراقب من جهة ما ، طوال الوقت ، إلا أنه ، كمرشّح للالتحاق بجهاز المخابرات المصرى ، أصرّ على أن يواصل حياته العادية ، وألا يغيّر عاداته أو تصرّفاته الشخصية ، حتى لا يشير إلى أنه قد أدرك ما يحدث ..

ولكن هذا كان يورثه حالة من التوتر العام ..

حالة جعلت تصرّفاته عصبية ، إلى حد ما ..

وجعلته يتوقَّع الأسوأ ..

دائمـًا ..

لـذا ؛ فقد قفزت أعصابه إلى ذروة التوتر ، عندما استوقفه رجل غليظ الملامح ، ضخم الجثة إلى حد ما ، وهو يقول بلهجة خشنة ؛ غليظة ، صارمة :

ـ أأنت المصرى (هشام حسن) ؟

أجابه (هشام) فى حدة ، ربما لم يجد فيما بعد ما يبررها :

ـ نعم .. هو أنا .

أخرج الغليظ بطاقة رسمية من جيبه ، بَسَطها أمام (هشام) ، وهو يقول بتلك اللهجة الخشنة :

ـ (جريجورى مور) .. من المباحث الفيدرالية (FBI) .

تضاعف توتر (هشام) ، وهو يقول فى عصبية شديدة :

ـ وماذا تريد منى ؟!

أعاد الغليظ بطاقته إلى جيبه ، وهو يقول فى غلظة :

ـ لن نتحدَّث هنا .

ثم أمسك ذراع (هشام) فى قوة ، حتى إن هذا الأخير شعر بأصابعه تغوص فى لحم ذراعه ، وهو يضيف بنفس الغلظة الصارمة :

ـ سنذهب إلى حجرتك .

دفعه فى غلظة ، عبر ممرات مبنى المنازل الطلابية ، فى بلدة (تشارلوزفيل) ، فى ولاية (فرجينيا) ، متجاهلاً نظرات زملائه ، المذعورة المتوترة ، و(هشام) يقول فى عصبية بالغة :

ـ ماذا تفعل ؟!.. إننى لم أرتكب شيئًا !

قال الغليظ ، وقد تضاعفت صرامته :

ـ اصمت .

أطبق (هشام) شفتيه فى عصبية ، وراح عقله يبحث عن قصة مناسبة لتفسير أى اتهام يمكن أن يوجَّه إليه ، باعتباره عربيًّا إرهابيًّا ، كما اعتادت الإدارة الأمريكية ، كلما أرادت تجاوز قوانين الحريات ، مع أى عربى يقيم على أرضها .

وعندما بلغا حجرته ، دفعه الغليظ فى خشونة ، وأمام عيون الجميع ، داخل الحجرة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ تجرَّع بعض الماء ، فستقص علىَّ قصة حياتك كلها ، منذ أن توقَّفتَ عن الرَّضاع .

ثم أغلق الباب فى عنف ، فالتفت إليه (هشام) فى عصبية ، هاتفًا :

ـ ليس من حقك أن ..

استوقفه الغليظ بإشارة من يده ، وهو يقول بلهجته الغليظة :

ـ مهلاً .

ثم تبدَّلت لهجته فجأة ، وتغيَّرت لغته معها ، ليُردِف بالعربية ، وهو يتحسس وجهه بحركة غريبة :

ـ دعنى أتخلص من هذا الشىء أولاً .

اتَّسعت عينا (هشام) فى ارتياع ، عندما انتزع الغليظ وجهه فى بطء ، ليظهر تحته وجه وسيم ، لرجل قارب الأربعينات ، يقول مبتسمًا ، فى هدوء عجيب :

ـ فغلظته ترهق وجهى كثيرًا .

كانت ملامح الرجل ، على الرغم من وسامتها ، لا تتفق أبدًا مع ضخامة جسده ؛ ما جعل (هشام) ينقِّل بصره بين الوجه والجسد ، قبل أن يهتف ، فى لهجة جمعت بين الفرحة والدهشة والانفعال :

ـ رباه !.. إننى أعرفك .. أنت ...

وثب (أدهم) نحوه ، ووضع يده على فمه بحركة سريعة ، ثم رفع سبَّابته إلى شفتيه ، يدعوه إلى الصمت ، وشرح له بلغة الإشارة أنه من المحتمل أن يكونا مراقَبَيْن الآن ، فاتسعت عينا (هشام) ، وراح يشير بيده فى انفعال ، ليؤكد أن (أدهم) قد استخدم العربية بالفعل ، منذ لحظات قليلة ، فابتسم (أدهم) ، دون أن يجيب ، وأشار إلى فتحة التهوية ، وهو يشير متسائلاً إذا ما كان (هشام) يستطيع عبورها أم لا ..

ولم يُجِب (هشام) ..

ولكن لم تمض دقائق خمس ، حتى كان كلاهما يهبط من فتحة التهوية ، فى آخر رواق الطابق ، و(هشام) يهمس فى انفعال :

ـ أنت (أدهم صبرى) .. أليس كذلك ؟!.. لقد شاهدت صورك أكثر من مرة ، مع جدى (حسن) .

لم يحاول (أدهم) إجابة سؤاله ، وهو يهمس بدوره :

ـ الأمور تعقَّدت إلى حد كبير ، ولابد أن تغادر هذا المكان فورًا .

اتسعت عينا (هشام) فى دهشة متوترة ، وهو يقول :

ـ ولكن الأمور تسير معى على ما يرام ، وأفترض أننى أستطيع الحصول على شهادة الدكتوراه ، فى نهاية هذا العام .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ وماذا عن حياتك ؟!.. متى يمكنك الحصول عليها ؟!

انعقد حاجبا (هشام) فى توتر ، وهو يقول :

ـ ما الذى تشير إليه بالضبط ؟!

مال (أدهم) نحوه ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ أتحتاج حقًا إلى معرفة ما أشير إليه ؟!

ولم يجب (هشام) ..

فالواقع أنه قد فهم الأمر واستوعبه ، وربما قبل أن يشير إليه (أدهم) .. فوفقًا لما سمعه من جده ، عن طبيعة وأسطورية (أدهم صبرى) ، يدرك جيدًا أنه لن يتحرّك ، ويسافر من (القاهرة) إلى (فرجينيا) ، ويأتى إليه مباشرة ، إلا لو كان الأمر بالغ الخطورة ..

وإلى أقصى حد ..

فلو أن الأمر خطير فحسب ، لأرسلوا إليه شخصًا آخر ..

شخصًا ليس من الضرورى أن يملك كل مهارات وقدرات (أدهم) ..

وهذا يعنى أنه مضطر بالفعل ، إلى الاختيار بين شهادته ..

وحياته ..

وبصوت خافت ، تساءل :

ـ ماذا يحدث بالضبط ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يعيد ارتداء ذلك القناع الغليظ :

ـ ليتنى أعلم !

بدا له الجواب أكثر غموضًا وأكثر تساؤلاً ، من السؤال نفسه ، وحاول أن يلقى سؤالاً استفساريًا آخر ، إلا أن (أدهم) ضغط ذراعه مرة أخرى فى قوة ، وهو يقول :

ـ دعنا نغادر هذا المكان أولاً ، وسنحاول البحث معًا عن أية أجوبة ممكنة .

اندفع (هشام) معه ، نحو سلّم يقود إلى الطابق تحت الأرضى ، وقبل أن يهبطاه ، التفت إليه (أدهم) مبتسمًا ، وغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ ويمكنك اعتباره تدريبًا .

وسرت فى جسد (هشام) ارتجافة ..

ارتجافة شاب ، باغته الحظ ، بأن يتدرّب على يد أسطورة ..

أسطورة تحمل اسم رجل ..

رجل المستحيل ..

* * *

لم يكد الإسرائيلى (راعول) يلِف إلى مكتب (موريس مولر) ، رئيس (سميث) المباشر ، فى العاصمة الأمريكية (واشنطن) ، حتى بادره (مولر) ، قائلاً فى شىء من الصرامة :

ـ الخطة الرقمية لم تعد صالحة للاستمرار .. (أدهم صبرى) لم يفلت من الطاقم الروسى فحسب ، ولكنه حصل أيضًا على أحد أجهزة (ريد آى) ، مما يعنى أنه سيجد حتمًا وسيلة للتعامل معه .

أجابه (راعول) فى هدوء ، وهو يجلس على مقعد قريب :

ـ هذا أمر متوقَّع .

اعتدل (مولر) بحركة حادة ، وقال فى غضب :

ـ ولكنه لم يَرِد فى الخطة الأساسية .

هزَّ (راعول) كتفيه ، وقال :

ـ أمر طبيعى .

احتقن وجه (مولر) ، وهو يتطلَّع إليه فى غضب ، قبل أن يهبّ من خلف مكتبه ، ويشير إليه ، قائلاً فى حدة :

ـ أى أجوبة هذه ؟!.. البرنامج الرقمى ، الذى نسير على هديه ، برنامج أعددتموه أنتم ، ووضعتم قواعده وأساسياته ، فلو فشل ، تحت أية مقاييس ، فى خطته الرئيسية ، فـ ...

قاطعه (راعول) فى حزم :

ـ فسنتبع الخطة الاحتياطية الأولى .

التقى حاجبا (مولر) ، وهو يقول فى حذر :

ـ أهناك خطة احتياطية ؟

بسط (راعول) أصابع كفه كلها أمام (مولر) ، وهو يجيب مبتسمًا :

ـ خمس خطط احتياطية ، لا واحدة .. و(فرتيوالتى) مبرمج ، بحيث ينتقل تلقائيًّا ، من خطة إلى أخرى ، ومن الخطة الرئيسية إلى الخطط الاحتياطية بالتوالى ، وفقًا لمقتضيات الأمور .

عاد (مولر) إلى مقعده ، وتراجع فيه فى صمت ، وهو يتطلَّع إلى وجه (راعول) ، وإلى ابتسامته البغيضة وهو يردف :

ـ وهذا يعنى ضرورة أن تمنحونا ثقتكم ، خاصة وأن (أدهم صبرى) هو عدونا اللدود ، وأشرس من يواجهه رجالنا طوال الوقت ، ونحن الأشد رغبة فى القضاء عليه ، ولا يمكننا أن نفسد هذا ، أو نضيع الفرصة ، مهما كانت الأسباب .

واصل (مولر) صمته بضع لحظات ، حتى بعد أن انتهى (راعول) من حديثه وجلس ينتظر رد فعله ..

ولكنه كان يشعر بغضب يعربد فى أعماقه ، بعد ما استمع إليه ..

الإسرائيليون ابتكروا برنامج (فرتيوالتى) هذا ؛ ليماثل شخصية (أدهم صبرى) ، ويفكِّر ويتصرف ، على نحو مطابق تمامًا لتفكيره وتصرفه ..

ولقد وضع الإسرائيليون كل الاحتمالات فى الاعتبار ..

حتى احتمال فشل الخطة الرئيسية ..

ولقد وضعوا خمس خطط احتياطية ..

خمس خطط ، لم يعلم حلفاؤهم عنها شيئًا ..

خمس خطط ، تثبت أنهم ما زالوا على طبيعتهم المعتادة ..

ما زالوا يخدعون كل الأطراف ..

ويستغلون كل الأطراف ..

و ...

قطع أفكاره بغتة ، ليعتدل بحركة حادة ، ويسأل (راعول) فى صرامة :

ـ ما الذى تفعلونه فى (سيبيريا) ؟!

كان يتوقع نظرة دهشة ، أو اتساعة عينين ، أو حتى ارتجافة مكتومة ؛ لذا فقد أدهشه أن تساءل (راعول) بمنتهى البساطة :

ـ وما شأن (سيبيريا) بخطتنا المشتركة ؟!

قال (مولر) فى صرامة أكثر :

ـ الروس رصدوا وصولك إلى هناك ، واختفاءك لفترة طويلة ، بلغت عدة ساعات ، فى مكان ما من (سيبيريا) .

استعاد (راعول) ابتسامته الخبيثة ، وهو يقول :

ـ أهذا كل ما توصل إليه رجلهم (بولانسكى) ؟!

لم يكن (مولر) يدرى اسم رجل المخابرات الروسى ، الذى قام بالمهمة ؛ لذا فقد أدهشه رد فعل (راعول) ، فسأله ، محاولاً التشبُّث بالصرامة نفسها :

ـ لقد تعرَّفته .. أليس كذلك ؟!

أجاب (راعول) فى هدوء :

ـ من اللحظة الأولى .

ثم ابتسم ، فى مزيج من الثقة والخبث ، مستطردًا :

ـ الشىء الذى لم يدركوه ، هو أننا نحفظ وجوه رجالهم عن ظهر قلب ، وأن هذا جزء من تدريباتنا ، ومن تدريبات المصريين أيضًا .

انعقد حاجبا (مولر) ، وهو ينظر إلى (راعول) طويلاً ، قبل أن يقول ، وقد استعاد صرامته الفعلية :

ـ ما زلتَ لم تُجِبْ سؤالى .

أجابه (راعول) ، فى سرعة وصرامة وحزم :

ـ ولن أفعل .

بدا الغضب الشديد على وجه (مولر) ، فاستطرد (راعول) ، محاولاً تهدئة الأمر :

ـ لأن هذا شأن خاص بنا ، ولا صلة له بعمليتنا المشتركة .

غمغم (مولر) ، فى شك حذر :

ـ شأن خاص بكم ؟!

أجابه (راعول) فى حزم :

ـ بالتأكيد .. مخابرات دولتى لـن توقف كل نشاطاتها لمجرد أنها تقوم بعملية مشتركة ، مع أجهزة مخابرات صديقة .

بدت إجابته منطقية للغاية ، إلا أن (مولر) قال فى توتر :

ـ ولماذا لم تخبر الروس ؟!

قال فى سرعة :

ـ ولماذا أخبرهم ؟!

صمت (مولر) طويلاً ، وهو يتراجع فى مقعده ، حتى يكاد يسقط معه ..

الإسرائيلى أجاب كل الأسئلة ..

وعلى نحو منطقى تمامًا ..

وعلى الرغم من هذا ، مازال (مولر) يشتم رائحة خداع ..

ومازال يلقى على نفسه السؤال ذاته :

ترى ماذا يخفى الإسرائيليون ؟!..

مـاذا ؟!..

* * *

منذ بَدءا رحلة الهروب المحدودة ، لم ينبس (هشام) ببنت شفة ، حتّى وجد نفسه أخيرًا ، مع مدرِّبه الأسطورى ، داخل منزل آمـن ، تم إعداده مسبقًا ، فى قلب (تشارلوتزفيل) ..

وهناك ، فى ذلك المنزل الآمن ، ألقى ذلك السؤال ، الذى الْتَهم خلايا مخه طويلاً :

ـ من يطاردنا بالضبط ؟!..

انتزع (أدهم) قناع الوجه الغليظ ، الذى يُلهب بشرته ، وألقـاه جانبًا فى قوة ، وهو يجيب :

ـ سيدهشك أن تعرف .

قال (هشام) فى حزم :

ـ ولكننى مصرىّ .

نظر إليه (أدهم) بابتسامة هادئة ، وجلس على مقعد قريب ، وهو يقول فى هدوء :

ـ خطـأ .

تطلَّع إليه (هشام) فى قلق متسائل ، فتابع بنفس الهدوء :

ـ أوّل ما ينبغى أن نتعلّمه ، فى عالم المخابرات ، هو أن المعرفة دومًا بقدر الحاجة .. أى إن كل شخص له الحق فى معرفـة كل شىء عن مهمته ، وليس له أدنى حق فى معرفة ما يتجاوز هذا .

قال فى توتر :

ـ حتى لو كانت حياته معرَّضة للخطر ؟!

أجابه (أدهم) بنفس الهدوء :

وماذا عن الجندى الذى يتلقّى أوامره فى زمن الحرب ؟!.. هل ينفذ الأوامر دون مناقشة ، أم يصر على معرفة أسبابها أوّلاً ؟!

غمغم (هشام) :

ـ ينفذها .

مال نحوه ، قائلاً :

ـ هذا ما يفعله رجل المخابرات .. ينفذ الأوامر فى ميدان معركته ، حتى ولو لم يعلم التفاصيل والأسباب ، فليس من الضرورى أن يلعب كل رجل مخابرات دورًا أساسيًّا فى اللعبة .. هناك مرات عديدة ، وعمليات كثيرة ، يلعب فيها رجال المخابرات دورًا محدودًا ، ينفذونه بكل دقّة وبراعة ومهارة ، حتى دون أن يسألوا عما سيؤدى إليه هذا ، أو ما قيمة دورهم فى اللعبة الكاملة ؛ لأنه من المستحيل أن يتم شرح كافة التفاصيل ، لكل المشاركين فى أية عملية ، وإلا فسيصبح تسرُّب الأمر أكثر احتمالاً .

تطلَّع إليه (هشام) فى صمت ، ودون أية انفعالات واضحة ، فسأله (أدهم) فى هدوء :

ـ ها استوعبت الأمر ؟

أجابه ، بنفس الوجه الجامد :

ـ بالتأكيد .

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى اهتمام :

ـ سؤال واحد ، أرغب فى معرفة إجابته فى شدة .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ وما هو ؟

سأل (هشام) ، بمنتهى الاهتمام والتوتر :

ـ مَن منّا المستهدف بما يحدث .. أنا أمْ ...؟!

لم يكمل سؤاله ، وكأنما خشِيَ مجرد الإشارة إلى (أدهم) ، الذى تطلّع إليه لحظة فى صمت ، وكأنما ينتظر منه أن يكمل تساؤله ، ثم أجاب :

ـ فى البداية ، كنت أتصور أنك المستهدف من كل هذا ، ولقد أتيت لحمايتك فحسب ، ولكننى ، ومنذ وصلت إلى (باريس) ، بدأت أفكر فى أن كل ما حدث لك كان مجرد وسيلة ؛ لاستدراجى إلى هنا ، وخاصة مع تلك الأجهزة شديدة التطور ، التى يستخدمونها فى مراقبتى وتتبُّعى .

غمغم (هشام) ، فى حذر متوتر :

ـ أجهزة ؟!

التقط (أدهم) حقيبة من جواره ، وأخرج منها جهاز (ريد آى) ، الذى انتزعه من رجل المخابرات الروسى ، فى مطار جى. إف. كيه ، وناوله لـ (هشام) ، وهو يقول :

ـ أجهزة مثل هذا .

غمغم (هشام) فى دهشة :

ـ كتـاب ؟!

أشار (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ هذا ما يبدو خارجيًا ، ولكن لو فتحته ، فستجد داخله شاشة رقمية خاصة جدًا ، ومصباح لبث الأشعة فوق البنفسجية ، مهمته أن يكشف كل تنكُّر أستخدمه ، مهما كان متقنًا .

غمغم (هشام) :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أغلق (أدهم) الجهاز ، وهو يقول :

ـ لقد فحصته جيدًا ، وفهمت وظيفته ، وقمت بتطوير الأقنعة التنكرية ، التى اعتدت استخدامها .. وذلك القناع الذى استخدمته للعب دور رجل المباحث الفيدرالية ، قمت بتبطينه بنسيج خاص ، يحوى مادة الرَّصاص ، المقاومة لكل أنواع الأشعة تقريبًا ، ولهذا يرهق بشرتى كثيرًا .

غمغم (هشام) مرة أخرى :

ـ ولهذا نجحنا فى الوصول إلى هذا المنزل الآمن .

أشار (أدهم) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم نهض ، وراح يسير فى المكان ، متابعًا :

ـ ومصطلح المنزل الآمن هذا ، يعنى أنه مكان خاص ، تَجهَله أجهزة المخابرات الخصمة أو العدوة ، بحيث يمكن للعميل أن يختفى فيه عند الحاجة ، كما يمكن لرجل المخابرات أن يلتقى فيه بمندوبين ، أو بعملاء يقومون بمهام محدودة ، دون أن ينكشف أمره أو أمرهم .

قال (هشام) فى بطء :

ـ لهذا يطلقون عليه اسم المنزل الآمن ؟!

أجاب (أدهم) ، وهو يتجه نحو النافذة :

ـ هذا صحيح .

أزاح ستارة النافذة قليلاً ، واختلس نظرة إلى الشارع ، قبل أن ينعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ تصحيح .. هذا المنزل ليس آمنًا ، كما كنا نتصور .

انتبه (هشام) للعبارة ، التى أطلقت موجة من التوتر فى كيانه ، وحاول أن يقول شيئًا ، إلا أن (أدهم) التفت إليه ، مستطردًا فى صرامة تشير إلى مدى انفعاله :

ـ إنهم يحاصروننا .

وانطلقت موجة أخرى ، فى كيان (هشام) ..

موجة أكثر عنفًا ..

ألف مرة .

★ ★ ★

8ـ الحصـــــار..

« أعتـرف .. »

نطقتها دونا (كارولينا) فى برود ، وهى تنفث دخان سيجارتها الملوَّنة فى بطء وهدوء فى وجه سير (ويليام) ، الذى احتقن وجهه من شدة الغضب ، وهو يقول :

ـ وهل يكفى اعترافكِ هذا ؟!

هزَّت كتفيها ، قائلة :

ـ هذا كل ما يمكننى تقديمه .

صاح بها :

ـ بل هناك المزيد .. يمكنك أن تأمرى رجالك بالتراجع ، وبفض الحصار الذى يصنعونه حول ذلك المنزل الآمن ، الذى يختفى فيه (أدهم) مع ذلك الشاب المصرى .

انعقد حاجباها فى صرامة ، وهى تقول :

ـ لقد اعترفت بأننى أرسلت رجالى لمحاصرة (أدهم) فى تلك البلدة (تشارلوزفيل) ، فى ولاية (فرجينيا) الأمريكية ، وأننى من قرَّر إنهاء لعبتكم السخيفة هذه بضربة واحدة .

بدا شديد الغضب ، وهو يشير إليها قائلاً :

ـ كل ما سيفعله قراركِ الأحمق هذا ، هو أن يفسد أعقد خطة فى التاريخ ، ويساعد (أدهم) على الإفلات ، وينقل الخطة كلها ، من الحصار والتوجيه غير المباشرَيْن ، إلى مواجهة صريحة ، لم ينهزم فى مثلها (أدهم صبرى) قط ، كما يؤكد ملفه .

قلبت شفتيها فى ازدراء ، قائلة :

ـ ماذا أصابكم يا رجال المخابرات ؟!.. المفترض أنكم أصل الابتكار والتجديد ، فكيف تصبحون عبيدًا لأوراق ملف ، وبرامج كمبيوتر أحمق ؟!

ازداد وجهه احتقانًا ، وتمنى لو يصفعها على وجهها ، بكل ما يملك من قوة ، وهو يقول مُحنَقًا :

ـ بل ماذا أصابكِ أنتِ ؟!.. لقد تحالفت معنا بكامل إرادتك ، وتعهَّدت بمشاركتنا فى القضاء على (أدهم صبرى) ، وفى الالتزام بالخطة وقواعدها .. وما أذكره جيدًا ، هو أنك قد تعهَّدت مثلنا جميعًا ، بعدم القيام بخطوة منفردة أو مفاجئة ، أو بأى عمل مغاير للخطة ، دون الرجوع إلى التحالف .

هزَّت كتفيها مرة أخرى ، وهى تطفئ سيجارتها بلا مبالاة ، قائلة :

ـ ولكننى وجدت فرصة مثالية للقضاء على الهدف ، دون المرور بتلك التعقيدات الرقمية الطويلة ، فقمت باستغلالها ، بأفضل وسيلة ممكنة .

بلغ انعقاد حاجبيه ذروته ، حتى كادا يندمجان ، وهو يتطلَّع إليها بنظرة صارمة متفرِّسة ، جعلتها تبتسم فى سخرية ، وهى تشعل سيجارة ملوَّنة أخرى ، قائلة :

ـ هل تروق لك ملامحى ؟!

تجاهل عبارتها المستفزة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ليس هذا هو السبب الحقيقى يا دونا .

نفثت دخان سيجارتها ، وهى تقول ساخرة :

ـ وما السبب الحقيقى أيها العبقرى ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ (أدهم) .

انعقد حاجباها الجميلان ، واضطربت أصابعها الممسكة بسيجارتها ، وهى تردِّد فى خفوت :

ـ (أدهم) ؟!

تابع فى صرامة :

ـ لقد فعلتِ ما فعلتِ ، وأنت تدركين تمامًا أنه خروج عن الخطة الأساسية ، وأنه سيلفت انتباه رجل مخابرات متميِّز وموهوب مثله ، وأن هذا كفيل بإفساد كل شىء ، و ...

صمت لحظة ، ثم ضغط حروف كلماته فى شدة ، وهو يضيف :

ـ ومَنْحِه فرصة للنجاة .

نفثت دخان سيجارتها فى عصبية شديدة ، وهى تغمغم :

ـ يا للسخافة !

تابع ، كأنه لم يسمعها :

ـ وهذا لسبب مهم للغاية ..

وعاد يتطلَّع إلى عينيها السوداوين الساحرتين مباشرة ، قبل أن يكمل ، بمنتهى الصرامة والحزم :

ـ لأنك تحبينه .

اضطربت أصابعها على نحو واضح هذه المرة ، وعجزت ملامحها الفاتنة عن كتمان مشاعرها ، فتبدَّت فى ارتفاع حاجبيها ، وضم شفتيها ، وتلك الارتعاشة الواضحة فى جفنيها ، قبل أن تقول بصوت مرتجف ، لم ينجح فى خداع أذنيها ذاتهما :

ـ أى حماقة هذه ؟!

قال بنفس الصرامة :

ـ ليست حماقة ، ولكن حقيقة .

لم تشعر بالغضب فى حياتها ، مثلما شعرت به فى تلك اللحظة ..

لقد فعلها ذلك البريطانى ..

غاص فى أعمق أعماقها ، وانتزع أدق أسرارها ..

وكشف مشاعرها ..

حقيقة مشاعرها ..

وهو على حق تمامًا ..

لقد أرسلت (ماريو) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، مع جيش من رجالها ، وأمرتهم بالقضاء على (أدهم) ، ومواجهته بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

أمرتهم بهذا ، وهى تدرك أن (أدهم) ، بخبرته ومواهبه ، سيكشف أمرهم حتمًا .. وسيواجههم ..

وبمنتهى العنف ..

بل لقد تمنَّت ما هو أخطر من هذا ..

تمنَّت أن يهزمهم ..

أن يسحقهم جميعًا بلا رحمة ..

وينجـو ..

كزعيمة لأكبر منظمة إجرامية فى العالم ، كان ينبغى أن تسعى إلى العكس ..

إلى انتصار رجالها ..

وهزيمة (أدهم) ..

ولكنها كأنثى ، أرادت العكس تمامًا ..

أرادت نجاة الرجل الذى تحب ..

وانتصارَه ..

وبقـاءه ..

فلو هزم رجالها ، ونجا منهم ، فسيعنى هذا أن يكشف طبيعة اللعبة كلها ، وينقل الأمر إلى مواجهة صريحة مباشرة ..

صحيح أنه سيواجه عندئذٍ أربعة من أقوى أجهزة المخابرات العالمية .. ولكنها ستكون مواجهة معروفة ..

مواجهة من ذلك النوع الذى يتفوَّق فيه دومًا ..

وربما لن ينتصر ..

أو حتى ينجو ..

ولكن ستكون أمامه فرصة عادلة على الأقل ..

هذا بافتراض أنه من العدل أن تتـآزر أربعـة أجهزة مخـابرات كبرى ؛ لمواجهة رجل واحد ..

رجل تحبـه ..

وتعشقه ..

وتتمنـاه ..

وعلـى الرغم من مشـاعرها تلــك ، فقـد لوَّحـت بسـيجارتها الملوَّنة ، قائلة فى حدة :

ـ وَهْمٌ .. ما يدور فى عقلك مجرَّد وهم .

سألها فى صرامة :

ـ حقًّا ؟!..

لم تجب سؤاله هذه المرة ..

كل ما فعلته هو أن حدَّقت فيه لحظات ، حتى شـعرت بسـخونة بقايا سيجارتها على أصابعها ، فأطفأتها فى أناقة ، وهـى تقـول ، دون أن تنجح فى كبت عصبيتها :

ـ وماذا تريدون منى بالضبط ؟!

أجابها بلهجة آمرة :

ـ مرى رجالك بالانسحاب .

تطلَّعت إليه فى صمت بضع لحظـات ، وأشـعلت سيجارة ملوَّنـة أخرى ، فى توتر واضح ، وهى تقول :

ـ وهل تظن هذا مجديًا ؟!

دفعه سؤالها إلى الصمت ، وهو يَحسُب الجواب جيدًا ..

لا .. لن يكون هذا مجديًا ..

لقد رصد (أدهم) حصار رجالها حتمًا ..

ولم يعد لانسحابهم أية قيمة ..

ستحدث المواجهة ..

حتمـًا ..

أدار الأمر فى رأسه عدة مرات ، دون أن يَبلُغ جوابًا آخر ..

ولكنه لم يضع ذلك الجواب على لسانه قط ..

فمن الواضح أن اللعبة تتخذ مسارًا آخر ..

مسارًا يخالف الخطة الأساسية ..

خطة الإسرائيليين ..

★ ★ ★

تألَّقت عينا (راعول) فى شدة ، وهو يتحدَّث إلى رئيسه عبر خط هاتف مؤمَّن من مبنى السفارة الإسرائيلية فى (واشنطن) ، قائلاً :

ـ كما خططنا تمامًا يا سيِّدى .. دونا (كارولينا) كانت الضلع الأضعف فى التحالف .. وفكرة القضاء على (أدهم صبرى) نهائيًّا ، لم تستقر تمامًا فى وجدانها ، مع ما تشعر به تجاهه من مشاعر فيَّاضة ، ولقد فعلت ما توقَّعه منها (فرتيوالتى) تمامًا ، منذ اللحظة الأولى .. لقد انضمَّت إلى التحالف ؛ لتدرك خطته وأهدافه ، ثم سعت إلى تحذير (أدهم) ، على نحو غير مباشر .

غمغم رئيسه :

ـ عظيم .

ابتسم (راعول) ، وهو يقول :

ـ لا يمكنك أن تثق فى النساء ، حتى ولو كن زعيمات لمنظمة كبرى .

زمجر رئيسه ، قائلاً :

ـ نساؤنا يمكن الوثوق بهن .

صمت (راعول) لحظة متردِّدًا ، ثم قال فى حذر :

ـ ليس كلهن .. لقد كنا نتصور أن (سونيا) ، ابنة (دافيد جراهام) ، هى أفضلهن وأقواهن بلا منازع ، ولكن لذلك المصرى سحر خاص ، أوقعها فى حبائله ، إلى الحد الذى دفعها إلى الزواج منه ، مستغلة حالة فِقدانه الذاكرة[*] .. بل وأنجبت منه طفلها الوحيد أيضًا[**] .

بدا من صمت رئيسه ، أن الحديث لم يرُق له ، فأسرع (راعول) يستدرك :

ـ ولكنها استثناء بالطبع .. أما باقى نسائنا ...

قاطعه رئيسه فى صرامة :

ـ وماذا عن العملية الروسية ؟!

صمت (راعول) لحظة ، ليزدرد لعابه ، قبل أن يقول :

ـ كانوا حذرين متهيِّبين فى البداية ، وتشككوا فى أهدافنا الفعلية ، ولكن حديث الأرقام أعاد إليهم صوابهم ، والأصفار التسعة ، إلى يمين الرقم ، حصلت على موافقتهم السريعة .

غمغم رئيسه كعادته :

ـ عظيم .

(★) راجع قصة (الرجل الآخر) .. المغامرة رقم (81) .

(★★) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم (84) .

ثم استطرد ، فى اهتمام صارم :

ـ ومتى يبدءون تعاونهم معنا ؟!

عادت عينا (راعول) تتألقان ، وهو يجيب :

ـ إنهم مستعدون لهذا ، فور تلقيهم الدفعة الأولى ، ولكننا سنسير وفق خطتنا الأساسية ، وسنبدأ تعاوننا معهم ، مع بداية المواجهة .

وصمت لحظة ، ثم استطرد ، فى لهجة أشبه بالجذل :

ـ المواجهة المباشرة مع (أدهم صبرى) .

وأطلق ضحكة قصيرة ، لم يستطع كتمانها فى أعماقه ، قبل أن يضيف :

ـ عندئذ سينشغل الجميع فى صراع بالغ العنف ، وسيثير (أدهم) غضبهم إلى أقصى حد ، كعادته ، ويستفز مشاعرهم ، ويتحدَّى عقولهم ، فيستنفر كل قواهم ، ويدفعهم إلى إلقاء كل شىء خلف ظهورهم ، وتجنيد كل عقولهم وإمكانياتهم لقتاله .. وهذا سيشغلهم عنا به حتمًا ، وسيتيح لنا فرصة تنفيذ خطتنا ، على أكمل وجه ممكن ، بحيث لا يُفيقُون ، إلا وقد أصبحنا سادتهم !

وتضاعف تألُّق عينيه أكثر وأكثر ، وهو يضيف فى شغف :

ـ وسادة العالم كله !

وفى هذه المرة ، لم يستطع كتمان ضحكته ، فتركها تنطلق معربدة ، عبر حلقه وشفتيه ومشاعره ..

ضحكة واثقة ..

ظافرة ..

متشفية ..

ووحشية ..

★ ★ ★

على الرغم من استعداده المُسْبَق ، للعمل مع المخابرات المصرية ، لم يشعر (هشام) فى حياته كلها بالتوتر ، مثلما شعر به ، بعد عبارة (أدهم) الأخيرة ، داخل المنزل الآمن ..

العبارة التى فجَّرت كل الأمن ..

وكل الأمان ..

فلأول مرة ، فى عمره كله ، يبدو له الأمر كأنه النهاية الحتمية ..

هو وحده مع (أدهم) ، وعدد من الرجال يحاصرون المكان ، على نحو واضح صريح ، مما يوحى بأنهم حتمًا سيهاجمون ..

ويقاتلون ..

ويَقْتُلون ..

وما داموا قد توصلوا إلى منزل آمن ، فهذا يعنى أنهم ينتمون حتمًا إلى جهة قوية منظمة ..

جهة تعرف كيف تخطط ..

وتحاصر ..

وتهاجم ..

وتنتصر ..

وتلك الجهة تواجههما وحدهما ..

وحتى لو كان هذا المنزل الآمن عبارة عن ترسانة سلاح ، فكيف يمكنهم وحدهما أن يقاوما هذا الجيش ؟!

كيف ؟!

ارتسم توتره هذا فى وضوح على وجهه ، الذى شَحَب على نحو ملحوظ ، فتطلَّع إليه (أدهم) فى هدوء ، على الرغم من دقة الموقف ، وقال :

ـ خطأ آخر .

تطلَّع إليه (هشام) ، بكل الدهشة والتوتر ، وهو يكرِّر :

ـ خطأ ؟!

أدهشه أنْ جلس (أدهم) فى هدوء ، وكأنه لايواجه شيئًا ، وقال بلهجة متماسكة ، وكأنه يلقى محاضرة فى منتجع سياحى :

ـ بالطبع ؛ فأكبر خطأ يقع فيه رجل المخابرات ، هو أن يضطرب أو يفقد أعصابه فى مواجهة خصومه ، مهما كانت دقة وصعوبة موقفه .

أشار (هشام) بيده ، قائلاً فى عصبية :

ـ ولكن هذا الموقف ...

قاطعه (أدهم) مكملاً فى صرامة وحزم :

ـ شديد الصعوبة والتعقيد ، وعدد الخصوم يفوق قدرتنا على المواجهة .. أليس كذلك ؟!

ازدرد (هشام) لعابه فى صعوبة ، وهو يتمتم :

ـ بلى .

أشار (أدهم) بيده ، وهو يجلس فى هدوء كامل ، متجاهلاً ـ ظاهريًا على الأقل ـ كل ما يدور حوله ، وقائلاً :

ـ وأنا أتفق معك فى هذا ، ولكنها ، ومهما بلغ اختلاف القُوَى ، لعبة تخطيط واستراتيجية ...

أشار إلى رأسه ، مستطردًا :

ـ وذكاء .

أضاف (هشام) فى توتر :

ـ وقوة أيضًا .

هزَّ (أدهم) كتفيه ، قائلا :

ـ القوة مسألة نسبية ، وفى بعض الأحيان ، تكون القوة هى أكبر نقطة ضعف لدَى الخصم .

لم يستطع عقل (هشام) استيعاب هذا المنطق ، وبخاصة فى مثل هذه الظروف المعقَّدة ، وخُيِّل إليه أنه يسمع وقع أقدام المحاصِرين وهم يصعدون درجات السلم إليهما ، فحدَّق فى (أدهم) بدهشة متوترة ، جعلت هذا الأخير يتابع ، وهو يسترخى فى مقعده على نحو مستفز :

ـ فى معظم الأحيان ، يصاب الخصم والعدو بغرور شديد ، وتمتلئ نفسه بالغطرسة والثقة الزائدة ، عندما يدرك أنه يفوق من يواجهه بكثير ، وعندئذ تصبح هذه أكبر نقطة ضعف فى منظومته ؛ لأنه لو كان الطرف الآخر شجاعًا ، متماسكًا ، لايرتجف أمام فارق القوة الكبير ، فسيمكنه أن يستغل هذا الغرور وهذه الغطرسة ؛ للتحايل على خصمه وخداعه ، وإيجاد الثُّغرة الكامنة فى خطته ، والنفاذ منها إلى نقاط ضعف أكبر ، يمكنه من خلالها تحقيق النصر على من يفوقونه عددًا وقوة بكثير .

ولدهشته ، بدا له هذا المنطق سليمًا تمامًا ، إلى حد يصعب تصديقه ؛ لذا فقد سأل فى حذر :

ـ هل تؤمن بهذا حقًّا ؟!

ابتسم (أدهم) ، مجيبًا :

ـ ليس هذا فحسب ..

ثم مال نحوه ، وغمز بعينه ، مستطردًا :

ـ لقد استخدمته .. كثيرًا .

أصبح وقع الأقدام أكثر قوة وقربًا ، فلم يستطع (هشام) منع ذلك التوتر العنيف ، الذى سرى فى جسده كله ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ إنهم يقتربون .

لوَّح (أدهم) بيده ، وهو يعاود الاسترخاء فى مقعده ، قائلاً :

ـ أمر طبيعى .

هتف (هشام) :

ـ وماذا يفترض أن نفعل ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه بلا مبالاة ، وأجاب :

ـ ننتظرهم .

اتسعت عينا (هشام) عن آخرهما ، والتفت بحركة حادة إلى باب المنزل الآمن ، وقد أخذ وقع الأقدام الثقيلة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

* * *

« لن يمكنه الهروب هذه المرة .. »

نطقها (ماريو) فى حزم صارم ، وهو يجذب إبرة مدفعه الآلى ، قبل أن يشير بيده ، متابعًا :

ـ لقد حاصرنا هذا المنزل حصارًا كاملاً هذه المرة ، ولم نترك له ثغرة تكفى لفرار بعوضة ..

غمغم مساعده (لوتشيانو) ، وهو يجذب إبرة مدفعه بدوره :

ـ إنه ثعلب .

أجاب (ماريو) :

ـ حتى الثعلب يحتاج إلى مخرج ما ، ولقد أغلقنا كل المداخل ، على نحو شديد الدقة هذه المرة .. حاصرنا كل المداخل والمخارج ، وأغلقنا فتحات التهوية ، وأنزلنا رجالنا على سطح المبنى ، وبعضهم احتل القبو ، وهناك أكثر من ستة قناصين ، متحفزين لإصابة

أى هدف يبرز من أية نافذة ، وبعد ثوان ، سنحتل سلم المبنى كله ، ولن يعود هناك منفذ واحد .

غمغم (لوتشيانو) :

ـ وماذا لو قاتل ؟!

أطلق (ماريو) ضحكة ساخرة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ سيسعدنى أن يفعل ، فلدينا أكثر من مائة رجل كلهم يتحفزون لإطلاق النار على رأسه ، ورأس ذلك الشاب الجديد معه ، فور أن يلمحوهما .

التقط (لوتشيانو) نفسًا عميقًا ، وقال فى حذر :

ـ ذلك الرجل يجد دومًا وسيلة ما .

قال (ماريو) فى صرامة :

ـ لن يجدها هذه المرة .

تمتم (لوتشيانو) فى عصبية :

ـ لقد تصورنا هذا ، عندما ...

قاطعه فى حدة :

ـ هذه المرة تختلف .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين هاتفه المحمول ، فالتقطه بسرعة ، وسمع صوت (دونا) تسأله فى توتر :

ـ كيف الموقف الآن ؟!

أجابها فى احترام وسرعة :

ـ نسيطر على الموقف تمامًا يا دونا ، وننتظر أوامرك بالهجوم .

شعرت دونا (كارولينا) بالتوتر من عبارته ، وأدركت أنها قد أصبحت صاحبة القرار فى مصير (أدهم صبرى) ..

بأوامرها وحدها ، سيهاجمه رجالها ، أو ينصرفون ويتركونه ..

ولابد وأن تتخذ القرار ..

لا كأنثى ، ولكن كزعيمة ..

طال صمتها وتفكيرها ، فقال (ماريو) فى توتر :

ـ أوامرك يا دونا .

قوله أعاد إليها وعيها ، فانعقد حاجباها فى شدة ، وهى تقول فى حزم ، لم ينجح فى تخفيف ما تشعر به من ألم :

ـ اهجم !

تألقت عينا (ماريو) ، وهو يهتف :

ـ كما تأمرين .

ثم أنهى المحادثة ، والتقط جهاز اتصال لاسلكى محدود ، وقال عبره فى صرامة :

ـ نفِّذ .

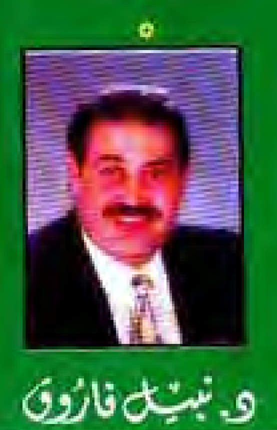
وبمنتهى العنف والوحشية والشراسة ، انتفض رجال (المافيا) على ذلك المنزل ، واقتحموه بمنتهى العنف ..

ودوت الرصاصات ترج (تشارلوزفيل) ..

على نحو مخيف ..

وقاتل .

★ ★ ★



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية
للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

1/1/008

المدرَّب

▪ مهمة بسيطة ، بدأ بها (أدهم) عمله ، فى قسم التدريب ، وفاءً لذكريات الماضى . .

▪ ثم انقلب الأمر إلى أعنف مواجهة ، بين رجل المستحيل ، وكل القوى المعادية له ، فى آن واحد . .

▪ وكمدرِّب أسطورى ، كان عليه أن يواجه الكل ، وأن يؤدِّى عمله فى الوقت ذاته ، دون أن يدرى أنه بهذا يواجه مهمة خاصة جدًّا . .

▪ مهمته الأخيرة . .

157

* اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل . . . رجل المستحيل .





